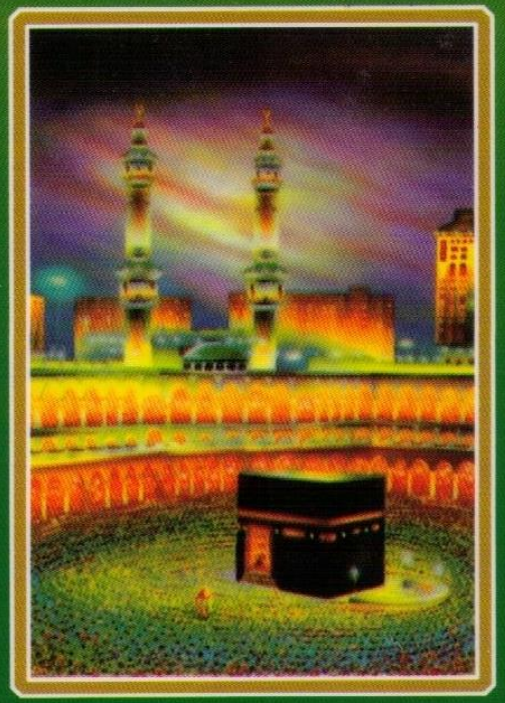

تاج العروس

الحاوي لتهذيب النفوس

تأليف

الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله السكندري

تحقيق

محمد علي محمد بحري

خالد خادم السروجي

مكتبة ابن القيم

الدار الدمشقية

ابن القيم

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا ☎ ٢٢٢٨٦٩٣ ✉ ٣٤٤٧٢

حقوق الطبع محفوظة
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

يُطلَب مِن

مكتبة ابن القيم

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - ص.ب ٣٤٤٧٣ - هـ ٢٢٢٨٦٩٣

تَاجُ العَرُوس

الحَاوِي لِتَهذِيبِ النُّفُوس

تأليف

الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله السكندر

تَحقِيق

محمد علي محمد بحري — خالد خادم السروجي

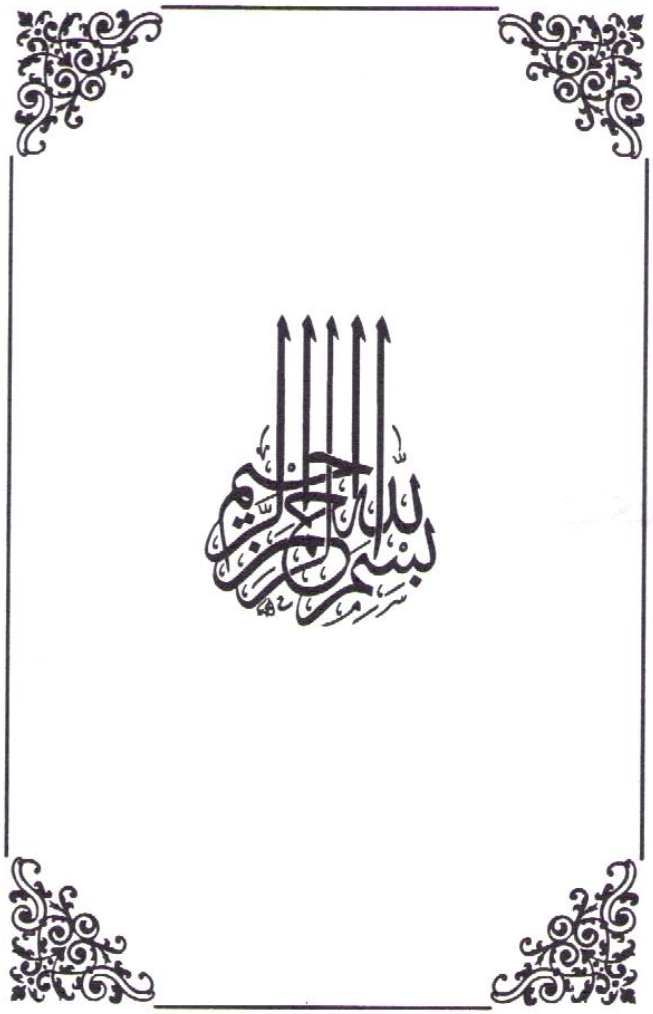

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإننا نعيش اليوم عصراً طغت فيه المادية الجامحة، وتاه إنسانها في جاهلية هي أشد من الأولى وأعظم، وجرى الناس لاهثين وراءها، ولا يدرون أن حتفهم ونهايتهم تقترب كلما أمسكوا بها. فهم في سكرتهم يعمهون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، نسوا الله فنسيهم، فتاهوا في صحراء شهواتهم، يطلبون الرِّيَّ فيها وإنما هلاكُهم بطلبها.

وبتنا بمسيس الحاجة إلى ذاك الصوت المجلجل القائل: على رِسْلِكَ أيها الإنسان! فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ!

ألا تقفُ فتفكرَ في إنسانيتك التي أضعتها! . .

عمرُ الكواكب محدودٌ وأنت إلى غير امتلاءٍ بكأس الخُلدِ ريّانُ

فحريٌّ بالأمة اليوم أن تُجنِّد ما تستطيع من أجل إرجاع الناس إلى إنسانيتهم وتهذيب أخلاقهم التي فقدوها . .

هذا وقد رغبت إلي «مكتبة ابن القيم» ـ وفقها الله ـ في أن أقف إزاء هذه الرسالة المسماة «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس» لابن عطاء الله السكندري، فأحققها وأبذل في إخراجها الإخراجَ الحسنَ ما يوفقني الله إليه فكان هذا العمل.

وقد كان عملي فيها مايلي:

١ ـ اعتمدت في إخراج هذه الطبعة على مخطوط في مكتبة الأسد بدمشق برقم (٧٣٤٧) من ورقة ٣٤ ـ ٦٧.

٢ ـ كل ما وجدته من طبعات في الأسواق وهي أربع نسخ اعتمدت بشكل أساسي فيها النسخة المطبوعة في حلب ـ المكتبة الأدبية ـ بدون تاريخ.

٣ ـ تخريج الآيات والأحاديث الواردة.

٤ ـ شرح ما قد يصعب من الكلمات على القارىء العادي.

٥ ـ وجدت اختلافاً في كثير من الكلمات بين المطبوع

والمخطوط فاعتمدت المخطوط غالباً وقد أشرت إلى ذلك عندما يكون الاختلاف مهماً.

٦ ـ حاولت التقليل من الحواشي قدر المستطاع حتى لا تستحيل الرسالة كتاباً.

واللهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه وأن يمنحنا التوفيق والقبول وحسن الختام.

محمد علي بحري

دمشق ١/١/١٤١٧هـ

١٧/٥/١٩٩٦م

○ ○ ○

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، وصلى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا كتاب «**تاجُ العروس الحاوي لتهذيب النفوس**» تأليفُ الشيخ الإمام، الجامع بين علمَي الشريعة والحقيقة: «تاج الدين، أبي العباس، أحمدَ بن عطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ» رحمه اللهُ تعالىٰ، وأسكنه بُحبُوحةَ[1] جنته! وأفاض علينا وعلى المسلمين من بركته، وصلى اللهُ وسلَّمَ على سيدنا محمد وصحابته، آمين!.

أيها العبد، اطْلُب التوبةَ من الله في كُلِّ وقت؛ فإن اللهَ تعالىٰ قد نَدَبَكَ[2] إليها، فقال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالىٰ:

(١) بُحْبُوحة الدار: وسطها.

(٢) ندبك إليها: دعاك لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[1].

فإنْ أردتَ التوبةَ فينبغي لك ألاّ تخلوَ من التفكر طول عُمُرِك؛ فتَفكَّر فيما صنَعْتَ في نهارك، فإنْ وجدْتَ طاعة فاشكُرِ اللهَ عليها، وإن وجدتَ معصية فَوَبِّخْ نفسَك على ذلك، واستغفر اللهَ وتُبْ إليه؛ فإنه لا مجلسَ مع الله أنفعُ لك من مجلسٍ تُوَبِّخُ فيه نَفْسَك. ولا توبِّخها وأنت ضاحكٌ فَرِح، بل وبِّخها وأنت مُجِدٌّ صادق، مُظْهِرٌ للعُبوسة، حزينُ القلب، منكسر، ذليل. فإن فَعَلْتَ ذلك أَبدلَكَ اللهُ بالحزن فرحاً، وبالذُّل عزّاً، وبالظُّلمة نوراً، وبالحِجاب كَشْفاً.

وعن الشَّيْخِ مَكينِ الدين الأسمر، رحمه الله تعالىٰ ـ وكان

(١) روى مسلم عن الأغَرِّ المُزَنيِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنه لَيُغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئةَ مرة». وروىٰ البخاري عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وفي النسخة المطبوعة جُمع بين الحديثين وما أوردته في المتن من المخطوط.

من السبعة الأبدال [1] ـ قال: (كنت في ابتداءِ أمري أَخِيطُ، وأَتَقَوَّتُ من ذلك، وكنتُ أَعُدُّ كلامي بالنهار، فإذا جاء المساء حاسبتُ نفسي، فأجِدُ كلامي قليلاً، فما وجدْتُ فيه من خير حَمِدْتُ اللهَ وشكرتُه عليه، وما وجدْتُ فيه من غير ذلك تُبْتُ إلى الله واستغفرتُه). إلىٰ أن صار بَدَلاً، رضي اللهُ عنه.

واعلم أنه إذا كان لك وكيلٌ يحاسِبُ نفسَهُ ويحاقِقُها [2]، فأنت لا تحاسبه؛ لمحاسبته نفسَه، وإن كان وكيلاً غير محاقِقٍ لنفسه، فأنت تحاسبه وتُحاقِقُه وتُبالغ في محاسبته. فعلى هذا ينبغي أن يكون عملُك كلُّه لله تعالىٰ، ولا ترى أنك تفعل فعلاً واللهُ تعالىٰ لا يحاسُبك ولا يُحاققك.

وإذا وقع من العبد ذنبٌ وقع معه ظُلْمة، فمثال المعصية كالنار، والظلمةُ دُخانُها، كَمَنْ أوقد في بيتٍ سبعين سنةً، ألا ترى أنه يَسْوَدُّ؟ كذلك القلبُ يَسْوَدُّ بالمعصية فلا يَطْهُرُ إلا بالتوبة إلى الله، فصار الذلُّ والظلمة والحجاب مقارِناً للمعصية،

(١) الأبدال، قيل: هم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالىٰ مكانَه بآخر. وقد روي فيهم أحاديث.

(٢) يحاققها: يخاصمها وينظر في حقوقه عليها.

فإذا تُبتَ إلى الله زالت آثارُ الذنوب [1]

ولا يَدخُل عليك الإهمالُ إلا بإهمالك عن متابعةِ النبي ﷺ، ولا تُحَصَّلُ لك الرِّفْعةُ عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي ﷺ. والمتابعةُ له عليه الصلاة والسلام على قسمين: جَلِيّةٌ، وخَفِيّة؛

فالْجَلِيَّةُ: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وغير ذلك.

والخَفِيَّة: أن تعتقد الْجَمْعَ [2] في صلاتك، والتدَبُّرَ في قراءتك. فإذا فعلْتَ الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جَمْعاً ولا تَدَبُّراً، فاعلم أنّ بك مرضاً باطناً من كِبْرٍ أو عُجْبٍ أو غيرِ ذلك. قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] فيكون مِثالُك كالمحموم الذي يجد في فمه السُّكَّر مُرّاً. فالمعصيةُ مع

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن العبدَ إذا أخطأ نُكِتَت ـ أي أثّرت ـ في قلبه نُكتة، فإن هو نزع ـ أقلع ـ واستغفر صُقِلَتْ، فإن عاد زيدَ فيها حتى تعلوَ قلبه، فذلك الران ـ صدأ الشك ـ الذي ذكره الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

(٢) الجمع: رؤية الحق وحده سبحانه.

الذلِّ والافتقارِ خيرٌ من الطاعة مع العزِّ والاستكبار. قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ الخليل ـ عليه وعلى نبينا محمد أفضلُ الصلاة وأتمُّ السلام ـ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] فمفهومُ هذا أنّ مَنْ لم يَتْبَعْهُ ليس منه، وقال تعالى حكايةً عن نوح ـ عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي..﴾ [هود: ٤٥] فأجابه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. فالمتابعةُ تجعل التابعَ كأنه جُزءٌ من المتبوعِ وإن كان أجنبياً، كسلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه؛ لقوله ﷺ: «سلمانُ منّا أهلَ البيت»[1] ومعلومٌ أن سلمانَ من أهل فارس، ولكنْ بالمتابعة قال عنه ﷺ تعليماً، فكما أنّ المتابعة تُثْبِتُ الاتصال، كذلك عَدَمُها يُثبتُ الانفصال.

وقد جَمَعَ اللهُ الخيرَ كلَّه في بيت وجعل مفتاحَه متابعةَ

(١) أخرجه ابن سعد، والطبراني في «الكبير»، والحاكم وسكت عليه، وقال الذهبي: سنده ضعيف، وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «تخريج أحاديث تهذيب الكمال» وذكره الألباني في «ضعيف الجامع» وقال: ضعيف جداً، وقد صحَّ موقوفاً على علي.

النبي ﷺ، فتابعْهُ بالقناعة بما رزقك اللهُ تعالىٰ، والزُّهْدِ والتقلُّلِ من الدنيا، وتَرْكِ ما لا يَعني من قول وفعل، فَمَنْ فُتح له بابُ المتابعة فذلك دليلٌ على محبة الله له. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإذا طَلَبْتَ الخيرَ كلَّه فقل: اللهم إني أسألك المتابعةَ لرسولك ﷺ في الأقوال والأفعال. ومَنْ أراد ذلك فعليه بعدم الظلْم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم؛ فلو سَلِمُوا من ظلم بعضِهم بعضاً لانطلقوا إلى الله، ولكنهم مَعُوقُون كالمِدْيانِ[1] المعوق بسببِ مَن يطلُبه.

واعلم أنك لو كنتَ مُخَصَّصاً عند المَلِك، مقرَّباً منه، وجاء مَنْ يطلُبك بِدَينٍ، ضَيَّقَ عليك ولو كان نَزْراً يسيراً، فكيف بك إذا جئتَ يوم القيامة، ومئةُ ألفِ إنسان أو أكثرُ يطلبونك بِدُيون مختلفة من أَخْذِ مال، وقَذْفِ عِرْض، وغير ذلك، فكيف يكون حالُك؟!.

المُصابُ حقاً مَنْ مَحَقَتْهُ[2] الذنوب والشهوات حتى

(١) المِدْيان: مَنْ أثقلته الديون وهي صيغة مبالغة.
(٢) مَحقَتْه: ذهبَتْ به ومحتْه.

جَعَلَتْهُ كالشَّنِّ البالي [1]، هذا هو المنكوبُ المعزّىٰ؛ ذهبتْ مآكلُه وشهواتُه، ملأ بها المِرْحاض، وأرضى بها زوجته، ويالیتها كانت من حلال!.

فالأولُ من المقامات: التوبة، ولا يُقبل ما بعدها إلا بها.

مثال العبدِ إذا فعل معصية كالقِدْرِ الجديد، يُوقَدُ تحتها النار ساعةً فَتَسْوَدّ، فإنْ بادرْتَ إلى غسلها انغسلتْ من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخْتَ فيها مرةً بعد مرة ثَبَّتَ السوادَ فيها حتى تتكسّر، ولا يُفيد غسلُها شيئاً. فالتوبةُ هي التي تَغسل سوادَ القلب فَتَبْرُزُ الأعمالُ وعليها رائحةُ القَبول، فاطلبْ من الله تعالى التوبة دائماً فإن ظَفِرْتَ بها فقد طاب وقتُك؛ لأنها موهِبةٌ من الله يضعها حيث شاء من عباده، وقد يَظْفَرُ بها العبد المُشَقَّقُ الأكعابُ [2] دونَ سيده، وقد تَظْفَرُ بها المرأة دون زوجها، والشابُّ دون الشيخ، فإنْ ظَفِرْتَ بها فقد أحبَّك اللهُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) الشَّنّ البالي: القِربة الصغيرة البالية.
(٢) المشَقَّقُ الأكعاب: كناية عن تواضُع حاله ورَثاثتها.

إنما يَغْتَبِطُ [1] بالشيء من يعرف قَدْرَه، ولو بَدَرْتَ [2] الياقوتَ بين الدوابّ لكان الشعيرُ أحبَّ إليهم، فانظر: من أيِّ الفريقين أنت؟ فإن تُبْتَ فأنت من المحبوبين، وإن لم تَتُبْ فأنت من الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجرات: ١١].

ومَنْ تاب ظَفِر، ومن لم يتب خَسِر. ولا تقطَعْ يأسَك وتقول: كم أتوبُ وأَنْقُضُ [3]؛ فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح.

وإذا تاب العبدُ فرحتْ به دارُه من الجنة، وتفرح به السماءُ والأرض، والرسولُ ﷺ، فالحق سبحانه لم يَرْضَ أن تكون مُحِباً بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب؟!.

أفٌّ لِعبدٍ يعلم إحسانَ المحسن فَيَجْتَرِىءُ على معصيته، ولكن ما عَرَفَ إحسانه مَنْ آثَرَ عصيانَه، وما عَرَف قَدْرَه مَنْ لم يراقبه، وما ربح من اشتغل بغيره وعلم أن النفسَ تدعوه

---

(١) يغتبط: تتحقق لديه الغِبطة، وهي: تمنّي حال المغبوط من غير أن تريد زوالها عنه، بخلاف الحسد.
(٢) لعلها: بذرت بمعنىٰ فَرَّقْتَ، ولم أجد (بدرت) بهذا المعنىٰ.
(٣) أنقُضُ: أي أنقض التوبة بالعصيان.

إلى الهَلَكَة فَتَبِعَها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرُّشْد فعصاه، وعلم قَدْرَ المَعْصيِّ فواجهه بالمعصية ـ ولو علم اتِّصافَه بعظَمته لما قابله بوجود معصيته ـ، وعلم قُرْبَ مولاه وأنه يراه فسارع لما عنه نهاه، وعلم أَثَرَ الذنب المرتَّبِ عليه دنيا وأخرىٰ، وغيباً وشهادة، فما استحيىٰ من ربه، ولو علم أنه في قبضتِه لما قابله بمخالفته.

واعلم أن المعصية تتضمن: نَقْضَ العهد، وتحليلَ عقدِ الوُدّ، والإيثارَ على المَولىٰ، والطاعةَ للهوىٰ، وخَلْعَ جِلبابِ الحياء، والمبارزةَ لله بما لا يرضىٰ، مع ما في ذلك من الآثار الظاهرة من: ظهورِ الكدورة في الأعضاء، والجمودِ في العين، والكسلِ في الخدمة، وتَرْكِ الحِفْظِ للحُرمة، وظهورِ كَسْبِ الشهوات، وذهاب بهجة الطاعات.

وأما الآثارُ الباطنة: فكالقساوة في القلب، ومعاندةِ النفْس، وضِيق الصدر بالشهوات، وفُقدان حلاوة الطاعات، وترادفِ الأغيارِ المانعةِ من بروقِ شوارق الأنوار[1]، واستيلاءِ دولة الهوىٰ، إلى غيرِ ذلك من تَرادُفِ الارتياب، ونِسيانِ المآبِ وطولِ الحساب.

---

(١) أي: تتالي ما يشغلك عن الله ويمنع ورود الإلهام الإلهي.

ولو لم يكن في المعصية إلا تَبَدُّلُ الاسمِ لكان ذلك كافياً؛ فإنك إذا كنت طائعاً تسمى بالمحسن المقبل، وإذا كنت عاصياً انتقل اسمُك إلى المُسيء المُعْرِض. هذا في انتقال الاسم فكيف بانتقال الأثر من تبدُّل حلاوةِ الطاعة بحلاوة المعصية، ولَذاذةِ الخِدمة بلَذاذة الشهوة؟!. هذا في تبدُّل الأثر فكيف بتبدُّل الوصف؟ بعد أن كنتَ موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات، ينعكسُ الأمر فتتصفُ بمساوىء الحالات. هذا في تبدُّل الوصف فكيف بتبدُّل المرتبة؟ فبعد أن كنتَ عند الله من الصالحين صِرْتَ عنده من المفسِدين، وبعد أن كنتَ عند الله من المتقين صرْتَ عنده من الخائنين.

فإن كانت الذنوبُ منفتحةً في وجهك فاستغِثْ بالله، والجأ إليه، واحْثُ التراب على رأسِك وقُلْ: اللهم انقُلْني من ذُلِّ المعصية إلىٰ عِزِّ الطاعة. وزُرْ ضرائحَ الأولياء والصالحين وقل: يا أرحمَ الراحمين!.

أتريد أن تجاهدَ نفسَك وأنت تُقوِّيها بالشَّهَوات حتى تغلِبَك؟! ألا فقد جَهِلْتَ! فالقلبُ شجرةٌ تُسقىٰ بماء الطاعة، وثمراتُها مَواجيدُها[1]: فالعينُ ثمرتُها الاعتبار، والأُذُنُ

---

(١) مواجيدها: أي ما تجده من أمور.

ثمرتها الاستماعُ للقرآن، واللسانُ ثمرته الذِّكْر، واليدانِ والرِّجْلانِ ثمرتُهما السعيُ في الخيرات، فإذا جَفَّ القلبُ سقطتْ ثمراتُه، فإنْ أَجْدَبَ فَأَكْثِرْ من الأذكار، ولا تكُنْ كالعليل يقول: لا أتداوى حتى أجدَ الشفاء، فيقال له: لا تجدُ الشفاءَ حتى تتداوى، فالجهاد ليس معه حلاوة وما معه إلا رؤوسُ الأسنَّة، فجاهِدْ نفسَك، هذا هو الجهاد الأكبر، واعلم أن الثَّكلىٰ [1] لا عيدَ لها، بل العيدُ لمن قَهَرَ نفْسَه، لا عيدَ إلا لمن جَمَعَ شَمْلَه [2].

جاز بعضُهم على دَيرِ راهب فقال له: يا راهب، متىٰ عيدُ هؤلاءِ القوم؟ قال: يومَ يَغْفِرُ اللهُ لهم.

ما مِثالُك مع نفسِك إلا كَمَنْ وَجَدَ زوجتَهُ في حانة خَمّار، فأتاها بالملابس الحسنة والمآكلِ الطيبة [3]، وإذا تركَتِ الصلاةَ أصبح يُطعمها الهرائس والألوان.

بقي بعضُهم أربعين سنةً لا يحضُرُ الجماعة لِمَا يَشُمُّ من

---

(١) الثَّكلىٰ: الأم فقدت ولدها.
(٢) أي جمع أموره على جهاد شهواته.
(٣) أي وجدها في معصية فبدلاً من أن يَكُفَّها كافأَها وتركها على حالها.

نَتْنِ قلوب الغافلين، فما أعرفَكَ بِمَصالح الدنيا، وما أجهَلَك بمصالح آخرتك!.

مِثال الدنيا عندك كَمَنْ خرَج إلىٰ الضَّيْعَة، واجتهد فَخَزَنَ الأقوات، فأنت قد أتيت بما يعود نَفْعُه عليك في وقته، وإنْ خَزَنْتَ حياتِ الشهوات وعقاربَ المعصية هلكْتَ. كفىٰ بك جهلاً أن الناسَ يَخْزُنون الأقواتَ لوقت حاجتهم إليها، وأنت تَخْزُنُ ما يضرك وهي المعاصي! هل رأيتَ مَنْ يأتي بحيات فيربيها في داره؟! فَها أنت تفعل ذلك.

وأَضَرُّ ما يُخاف عليك مُحَقَّراتُ الذنوب؛ لأن الكبائر ربما استعظمْتَها فتُبْتَ منها، واستحقَرْتَ الصغائر فلم تَتُبْ منها. فمثالك كَمَنْ وجد أسداً فَخَلَّصَهُ اللهُ منه، فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] والكبيرةُ حقيرةٌ في كرم الله، وإذا أصررْتَ على الصغيرةِ صارتْ كبيرة؛ لأن السُّمَّ يقتل معَ صِغَرِه. والصغيرةُ كالشرارةِ من النار، والشرارةُ قد تُحْرِقُ بلدة.

مَنْ أَنْفَقَ عافيتَه وصحته في معصية الله، فمثالُهُ كَمَنْ خَلَّفَ له أبوه ألف دينار، فاشترى بها حياتٍ وعقاربَ

وجعلها حوله، تلدَغُهُ هذه مرة، وتَلْسَعُه هذه أخرىٰ، أفما تقتلُه؟! وأنت تَمْحَقُ الساعات في مخالفته، فما مِثالُكَ إلا كالحِدَأَةِ [1] تطوف على الجيفة، حيثما وَجَدَتْها انحطَّتْ عليها، فكن كالنحلة، صغيرٌ جِرْمُها [2]، عظيمةٌ هِمَّتُها، تجني طَيِّباً، وتضع طيباً.

طالما تَمَرَّغْتَ في مواطن المِحَن، فتمرّغْ في محابِّ الله عَزَّ وجَلّ، فهذه الحقيقة تُبين طريقك، ولكنْ مَنْ أماتتْهُ الغَفلة لم تَرُدَّهُ النَّكَبات؛ لأن المرأةَ الناقصةَ العقلِ يموت ولدُها وهي تضحك، فكذلك أنت تَنْكَبُّ عن قيام الليل وعن صيام النهار وفي جميع جوارحك ولا تتألَّم! وما ذلك إلا لأنَّ الغفلةَ قد أماتتْ قلبَك؛ لأن الحيَّ يؤلمه نَقْرُ الإبرة، ولو قُطِّعَ الميْتُ بالسُّيوف لم يتألم، فأنت حينئذ مَيْتُ القلب، فاجلسْ مجلسَ الحكمة ففيه نفحةٌ من نَفَحات الجنة، تجدُها في طريقك، وفي دارك، وفي بيتك، فلا يَفُتْكَ المجلسُ ولو كنتَ على معصية، ولا تَقُلْ: ما الفائدة في حضور المجلس، وأنا أعصي ولا أقدِرُ على تَرْكِ المعصية؟ بل على الرامي أن

(١) الحِدَأَة: طائر يحط على الجيفة وهي: المِيْتة.
(٢) جِرمُها: حجمها.

يرمي، فإنْ لم يأخذ اليومَ يأخذْ غداً.

اعلمْ يا هذا: إياكَ والمعصيةَ فقد تكون سبباً لتوَقُّف الرِّزق [1]، فاطلبْ من الله التوبة، فإن قُبِلَتْ وإلاّ فاستغِثْ بالله، وقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ولا تكُنْ كَمَنْ أتىٰ عليه أربعون سنةً ولم يقرَعْ بابَ اللهِ قطُّ.

وأكثرُ ما يُخاف عليك سوءُ الخاتمة ـ والعِياذُ بالله تعالىٰ! ـ بسبب إطفاء جَمْرةِ الإيمان بسَواد العصيان، وهي الذَّنْبُ على الذنب حتىٰ يَسْوَدَّ القلبُ من غير توبة.

إياكَ أن تتهاونَ في أعمالك وتختار الطيباتِ لِمِرْحاضك! واحذرْ نفسَكَ التي بين جَنْبَيْك فهي التي تَحْطِبُ عليك [2]، ثم لا تُفارق صاحبها إلى المَمات، والشيطان يفارِق في

(١) روى الإمام أحمد عن الرسول ﷺ قوله: «إن العبد لَيُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه». وكذلك فإن التوبة والاستغفار سبب من أسباب عطاء الله، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].
(٢) تَحْطِبُ عليك: تسعىٰ في إفسادك.

رمضان لأنه تُغَلُّ فيه الشياطين [1]، وربما تجدُ من يقتل فيه ويسرق، فهذا من النفْس. فإذا مالت إلى المعصية فذَكِّرْها بعذاب الله، والقطيعةِ عن الله بسببه، والعسلُ المسمومُ يُتْرَكُ مع العلم بحَلاوَتِهِ؛ لِمَا فيه من وجود الأذىٰ، لقوله ﷺ: «الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَة» [2] ويروىٰ أيضاً: «جيفةٌ قَذِرة» [3]: حلوة خضرة عند أهل الغفلة وجيفة قذرة عند العقلاء، حلوةٌ خَضِرَة عند النفوس، جيفةٌ قَذِرَة عند مرايا القلوب، حُلْوَةٌ خضرة للتحذير، وجيفَةٌ قذرة للتنفير، فلا تَخْدَعَنَّكم بحلاوتها فإن عاقِبتها مُرّة.

إذا قيل لك: مَنِ المؤمن؟ فقل: الذي اطَّلَعَ على عيب نفسه ولم يَنْسُبْ أحداً من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك:

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إذا جاء رمضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنة، وغُلِّقَتْ أبوابُ النار، وصُفِّدَتِ الشياطين ـ أي شُدَّت بالأغلال ـ». رواه البخاري ومسلم.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظرُ كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء». رواه مسلم.

(٣) أورده الهندي في «كنز العمال» عن علي قال: «الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب» (٨٥٦٤).

من المخذول؟ فقل: الذي يَنْسُبُ العباد إلى العيب ويُبَرِّىءُ نفسَه منه.

ومما تمادى عليه أهل الزمان: مُباسَطَتُهم ومؤانَسَتُهم للعاصين [1]، ولو أنهم عَبَسوا في وجوههم لكان ذلك زاجراً لهم عن المعصية.

لو فُتِحَ لك بابُ الكمال لما رَجَعْتَ إلى الرَّذائل، أرأيتَ من فُتِحَ له بابُ القصور، هل يرجِعُ إلى المَزابل؟! ولو فَتَحَ لك بابَ الأُنْس بينَك وبينه ما طلبْتَ مَنْ تأْنَسُ به. لو اختارك لِرُبوبيته ما قطعَكَ عنه. لو كَرُمْتَ عليه ما رماك لغيره.

وإذا عَزَلَ عنك محبةَ مخلوقٍ فافرحْ فهذا من عنايته بك، ولا تكونُ معصيةٌ إلا والذُّلُّ معها، أفتَعْصيه ويُعِزَّك؟! كلا! فقد ربط العزَّ مع الطاعة، والذُّلَّ مع المعصية، فَصارتْ طاعتُهُ نوراً وعِزّاً وكَشْفَ حجاب، وضِدُّها معصيةٌ وظُلمةٌ

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولَ ما دخل النَّقْصُ على بني إسرائيل أنه كان الرجلُ يلقىٰ الرجلَ فيقول: يا هذا، اتقِ اللهَ ودعْ ما تصنع فإنه لا يَحِلُّ له، ثم يلقاه من الغدِ وهو على حاله فلا يمنعُهُ ذلك أن يكون أكيلَهُ وشَرِيبَهُ وقَعيدَه. فلما فعلوا ذلك ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعض..».

وذُلٌّ وحجابٌ بينك وبينه، ولكنْ ما منعَكَ من الشُّهود إلا عدمُ وقوفِك مع الحدود، واشتغالُك بهذا الوجود.

إذا عصىٰ ولدُك فأدِّبْهُ بالشَّرع، ولا تَقْطَعْهُ، بل قابِلْهُ بالعُبوسة ليَكُفَّ عن المعصية. وأكثر ما يَدْخُلُ على المؤمن الدَّخَلُ [1] إذا كان عاصياً، فإما أن يفضحوه وإما أن يستهزئوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطؤوا الطريق.

إذا عصى المؤمن فقد وقع في وَرْطَةٍ عظيمة، وطريقُهُ أن تفعل معه كما فعلْتَ مع ولدك إذا عصى، تُعْرِضُ عنه في الظاهر، وتكونُ راحماً له في الباطن، وتطلُبُ له الدعاءَ بالغيب.

كفى بك جهلاً أن تَحْسُدَ أهلَ الدنيا على ما أُعْطُوا، وتَشْغَلَ قَلْبَكَ بما عندهم، فتكونَ أجهَلَ منهم؛ لأنهم اشتغلوا بما أُعْطُوا واشتغلْتَ أنت بما لم تُعْطَ.

تَرْمَدُ عينُك فتعالجها، وما سبب ذلك إلا أنك ذُقْتَ بها لَذَّةَ الدنيا، فتعالجها حتى لا يفوتَك النظرُ إلىٰ مستحسناتها،

---

(١) الدَّخَل: العيب والرِّيبة، ولعلها (الدُّخَّل).

وترمَدُ بصيرتُكَ [1] أربعين سنةً فلا تعالجها؟.

واعلمْ أنّ عُمُراً ضُيِّعَ أولُه حَرِيٌّ أن يُحْفَظَ آخرُه. كامرأةٍ كان لها عشَرة أولاد مات منهم تسعةٌ وبقي واحد، أليستْ تَرُدُّ وَجْدَها على ذلك الواحد؟! وأنت قد ضيعْتَ أكثرَ عُمُرِك فاحفظ بقيتَه، وهي صُبَابةٌ [2] يسيرة.

واللهِ ما عُمُرك من أولِ وُلدْتَ بل عُمرك من أول يوم عَرَفْتَ اللهَ تعالى.

شتانَ بين أهلِ السعادة وأهل الشقاوة: فأهلُ السعادة إذا رأَوا إنساناً على معصيةِ اللهِ أنكروا عليه في الظاهر، ودَعَوا له في الباطن [3]. وأهلُ الشقاوة يُنكرون عليه تشفياً فيه، وربما ثَلَبُوا [4] عليه عِرْضه، فالمؤمن مَنْ كان ناصحاً لأخيه في

---

(١) البصيرة: قوة القلب المدركة، فهي للقلب كالبصر للعين.

(٢) الصُّبابة: بقية الماء في الإناء، والمقصود هنا: بقية العمر القليلة.

(٣) مَرَّ أبو الدرداءِ على رجلٍ قد أصابَ ذنباً فكانوا يَسُبّونه، فقال: أرأيتُمْ لو وجدتُموه في قَلِيْبٍ ـ بئر ـ ألم تكونوا مُسْتَخْرِجيه؟! قالوا: بلىٰ. قال: فلا تَسُبّوا أخاكم، واحمَدُوا اللهَ الذي عافاكم. قالوا: أفلا تُبْغِضُهُ؟ قال: إنما أبغَضُ عملَهُ، فإذا تركَهُ فهو أخي.

(٤) ثَلَب: صَرّح بالعيب فيه وتنقَّصه، والمثالب: العيوب. وهي في=

الخَلْوة، ساتراً له في الجلْوة. وأهلُ الشقاوة بالعكس: إذا رَأَوا إنساناً على معصية أغلقوا عليه البابَ، وفضحوه فيها، فهؤلاءِ لا تُنوَّرُ بصائرُهم، وهم عند الله مُبْعَدون.

إذا أردْتَ أن تختبرَ عقلَ الرجل فانظر إليه إذا ذَكَرْتَ له شخصاً: فإن وجدْتَه يطوفُ على محمل سوءٍ حتىٰ يقول لك: خَلِّنا منه، ذاك فعل كذا وكذا! ـ فاعلم أنّ باطنَه خرابٌ وليس فيه معرفة، وإذا رأيتَه يذكره بخير، أو يذكر له ما يوصف بالذمِّ، ويحملُه على مَحْمَلٍ حسن، ويقول: لعله سَها، أو له عذر، أو ما أشبهَ ذلك ـ فاعلم أن باطنَهُ معمور، فإن المؤمن يعملُ على سلامةِ عِرْضِ أخيه المسلم.

مَنْ قاربَ فراغَ عُمُرِه ويريدُ أنْ يستدركَ ما فاته، فَلْيَذْكُرْ بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلاً، كقوله: «سبحان الله العظيم وبحمده، عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدادَ كلماته»[1]. وكذلك من

= المطبوع: (ثلم).

(١) عن أم المؤمنين جُوَيْرِيَة بنتِ الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندِها بُكْرَةً حين صلى الصبح، وهي في مسجدها ـ مكان صلاتها وعبادتها ـ ثم رجع بعد أن أَضْحىٰ ـ أي بعد =

فاته كثرة الصيام والقيام، أن يشغَلَ نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ، فإنك لو فعلْتَ في جميع عمرك كل طاعة، ثم صلى الله عليك صلاة واحدة ـ رجحتْ تلك الصلاةُ الواحدة على كل ما عملْتَهُ في عمرك كلِّه من جميع الطاعات؛ لأنك تصلي على قَدْرِ وُسْعِكَ، وهو يُصلي على حَسَب رُبوبيَّته. هذا إذا كانت صلاةً واحدة، فكيف إذا صلّى عليك عشْراً بكل صلاة؟! كما جاء في الحديث الصحيح[1]. فما أحسنَ العيشَ إذا أطعْتَ اللهَ فيه بذكر الله تعالى أو الصلاة على رسول الله ﷺ.

يُروى أنه ما من صيد يُصاد، ولا شجرةٍ تُقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالىٰ؛ لأن السارقَ لا يسرِق بيتاً، وأهلُه أيقاظ بل على غفلة أو نوم.

= الضحىٰ ـ وهي جالسة فقال: «ما زِلْت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. فقال النبي ﷺ: «لقد قُلْتُ بعدَكِ أربعَ كلمات، ثلاثَ مرات، لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنّ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه عَدَدَ خَلْقِهِ، ورضا نَفْسِهِ، وزِنَةَ عرشِهِ، ومِدادَ كلماتِه». رواه مسلم.

(١) قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عشراً». رواه مسلم. والصلاة من الله تعالى: الرحمة.

مَنْ علم قُرْبَ رحيلِه أسرع في تحصيل الزّاد، ومن علم أن إحسانَ غيره لا ينفعُه جَدَّ في الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خَسِرَ ولم يَدْرِ، ومَنْ وَكَّلَ وكيلاً واطَّلع على خيانته عَزَلَه. كذلك نفسك قد اطلعْتَ على خيانتها فاعزلْها [1] وضَيِّقْ عليها المسالك.

إذا رأيتَ فيك الإعراضَ والشهوةَ والغَفْلة فهذا وَصْفُك، وإذا رأيت فيك الإنابةَ والخشيةَ و الزُّهدَ فهذا من صنائع الله. مثال ذلك: إذا رأيتَ ببلادِكَ الحَلْفاء [2] والشَّوْكَ، والعَوْسَجَ فهذا نباتُ أرض بلدك، وإذا رأيت بها العُوْدَ الرَّطْبَ والمِسْكَ والعَنْبَرَ فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله ليس من نبات أرضك: فالمسك من غِزْلانِ عِراقِها، والعنبرُ من بحر هِندها.

مثال الإيمان معك إذا عصَيت اللهَ تعالى كالشمس المكسوفة، أو كالسِّراج إذا غطيتَهُ بِصَحْفَة [3]، هو موجود ولكنْ منع نورَه الغطاءُ. ثم إنك تحضر المجلس في الجامع

(١) أي كن أنت سيدها وقائدها ولا تجعلها تقودك.
(٢) الحَلْفاء: نبت مائي.
(٣) الصَّحْفَة: وعاء متوسط في الحجم.

ليتوفر عقلُك، وإن كان عمرك قليلاً فيصير كثيراً بحصول الإيمانِ والخشوع والخضوع، والخشية والتدبرِ والتذكر ونحوها. فلو عَرَفتَ الإيمان ما قاربْتَ العصيان، فلا غريم أمطَلُ من النفس [1]، ولا عدوَّ أعظمُ من الشيطان، ولا معارِضَ أقوىٰ من الهوى.

ولا يدفعُ المددَ الهابطَ مثلُ الكِبْرِ؛ لأنّ الغيثَ لا يَقَرُّ إلا على الأرضِ المنخفضة لا فوقَ رؤوسِ الجبال، فكذلك قلوبُ المتكبرين تنتقل عنها الرحمةُ وتنزل إلى قلوبِ المتواضعين. والمراد بالمتكبرين: مَنْ يردُّ الحقَّ، لا من يكون ثوبُه حَسَناً، ولكنّ الكِبْرَ بَطَرُ الحق، أي: دَفْعُهُ واحتقارُ الناس. ولا تعتقد أنّ الكِبْرَ لا يكون إلا في وزير أو صاحب دنيا، بل قد يكون فيمن لا يملك عَشاءَ ليلة، وهو يُفسد ولا يُصلح لأنه تكبَّرَ على حقٍّ [2] الله تعالىٰ.

ولا تعتقدْ أنّ المنكوبَ من كان في الأسر أو في السجن،

(١) أي: لن تجد غريماً يماطل ويُسَوِّف في الإقلاع عن العصيان وفي التوبة مثل نفسك.
(٢) في المطبوع: (على خلق الله) وفي المخطوط: (حقّ) ولعلها الصواب؛ لأنه سبق أن قال: «ولكن الكبر بطر الحق».

بل المنكوب من عصى اللهَ وأدخل في هذه المملكة الطاهرة نجاسةَ المعصية.

كثيرٌ مَنْ أنفقَ الدنانير والدراهم ولكنّ من أنفق الدَّمْعَ [1] قليل.

الأحمقُ من مات ولدُه وجعل يبكي عليه ولا يبكي على ما فاته من الله عز وجل، فكأنه يقول بلسان حاله: أنا أبكي على ما كان يشغَلُني عن ربي، بل كان ينبغي له الفرح بذلك، ويقبل على مولاه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه. وقبيحٌ بك أن تَشيبَ وأنت طفلُ العقل، صغيرُه، ولا تفهمَ مرادَ الله منك! فإن كنت عاقلاً فابْكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، فإن الولدَ والزوجةَ والخادم والصديقَ لا يبكون عليك إذا مُتَّ، بل يبكون على ما فاتهم منك، فسابقْهم أنت بالبكاء وقل: يَحِقُّ لي أن أبكيَ على فَواتِ حظي من ربي قبل أن تبكوا عليّ.

كفىٰ بكَ جهلاً أن يعاملك مولاك بالوفاء، وأنت تعامله بالْجَفاء.

---

(١) في المطبوع: (الروح).

ليس الرجلُ مَنْ صاح بين الناس في المجالس، إنما الرجلُ من صاح على نفْسِه وردَّها إلىٰ الله تعالىٰ.

من عالَ [1] هَمَّ الدنيا وتركَ هَمَّ الآخرة كان كَمَنْ جاءه أسدٌ يفترسه ثم قَرصَه بُرْغُوثٌ، فاشتغل به عن الأسد، فإن من غَفَلَ عن الله اشتغل بالحقير، ومن لم يَغْفُلْ عنه لم يشتغلْ إلا به. فأحسنُ أحوالك أن تفوتَكَ الدنيا لتحصيل الآخرة. يا طالما فاتَتْكَ الآخرةُ لتحصيل الدنيا!. ما أقبحَ الخوفَ بالجندي، وما أقبح اللحْنَ بالنَّحْوي [2]! وما أقبحَ طلبَ الدنيا لمن يُظْهِرُ الزُّهْدَ فيها.

ليس الرجلُ من يُرَبِّيْك [3] لَفْظُه، إنما الرجلُ من يُرَبِّيكَ لَحْظُه.

عن الشيخ أبي العباس المُرْسي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا كانت السُّلَحْفاةُ تُربّي أفراخَها بالنظر، كذلك الشيخُ يربي

---

(١) عال هَمَّ الدنيا: حَمَل همَّها.

(٢) ما أقبح اللَّحْنَ بالنَّحْوي: ما أقبح الخطأ في الإعراب إن كان من عالم بالنحو.

(٣) في المطبوع: (يربيك). وما أثبتناه من المخطوط. والمعنى: الرجل كلُّ الرجل لا يربيك بكلامه بل بنظره.

مريدَه بالنظر؛ لأن السُّلَحْفاة تَبِيْضُ في البَرِّ، وتتوجّهُ إلى جانب النهر، وتنظر إلى بيضها، فَيُرَبِّيهِمُ اللهُ لها بنظرها إليهم.

إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذُقْتَ حلاوةَ حبه. ليس حلاوةُ حبه في المآكل والمشارب؛ لأنه يشاركُكَ فيها الكافرُ والدابة، بل شارِكِ الملائكةَ في حلاوة الذكرِ، والجمعِ على الله تعالىٰ؛ لأن الأرواح لا تحتملُ رَشاشَ النفوس، فإذا انغمسَتْ في جيفةِ الدنيا لا تصلُح للمُحاضرة؛ لأن حَضْرةَ الله تعالىٰ لا يَدْخلها المتلطِّخون بنجاسة المعصية. فَطَهِّرْ قلبَك من العَيْبِ يَفْتَحْ لك بابَ الغيب، وتُب إلى الله-وارجِعْ إليه بالإنابة والذِّكر ومن أدام قرْع الباب يُفْتَحْ له، ولولا الملاطفَةُ ما قُلنا لك ذلك؛ لأنه كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: ومتىٰ أُغْلِقَ هذا البابُ حتىٰ يُفتح؟!.

ولكن هذا بابٌ يوصلك إلىٰ قربه. وإياكَ وذهولَ القلبِ عن وحدانية الله تعالى؛ فإنّ أولَ درجاتِ الذاكرين استحضارُ وحدانيته تعالىٰ. وما ذكرَهُ الذاكرون، وفُتِحَ عليهم إلا باستحضارهم ذلك، وما طُرِدوا إلا بذكرهم مع غَلَبَةِ الذهول عليهم. وتستعينُ على ذلك بِقَمْعِ الشهوتين: البَطْنِ والفَرْج. ولا يُضادُّك في الله إلا نفسُك.

ما أكثرَ تودُّدَك لِلْخَلْقِ، وما أقلَّ تودُّدَك للحق!

لو فُتح لك بابُ التودُّد مع الله لرأيتَ العجائب: ركعتانِ في جَوْفِ الليل: تَوَدُّد. عِيادتُكَ المرضىٰ: تودد. صلاتُكَ على الجنائز: تودد. الصدقةُ على المساكين: تودد. إعانتُكَ لأخيك المسلم: تودُّد. إماطتُكَ الأذى عن الطريق: تودد. ولكن السيف المطروح يحتاج إلىٰ ساعد، ولا عبادةَ أنفعُ لك من الذِّكْر؛ لأنه يُمْكِنُ الشيخَ الكبير والمريضَ الذي لا يستطيع القيامَ والركوع والسجود.

واعلم أن العلماءَ والحكماءَ يُعَرِّفونك كيف تدخل إلى الله تعالى.

هل رأيتَ مملوكاً أوَّلَ ما يُشْترى يصلُح للخدمة؟ بل يُعطى لمن يُرَبِّيه ويُعَلِّمه الأدب، فإن صَلَحَ وعَرَفَ الأدبَ قدَّمه للملك. كذلك الأولياءُ ـ رضي الله عنهم ـ يَصْحَبُهُمُ المُريدون حتى يُزَجُّوا [1] بهم إلى الحَضْرَة، كالعَوّام إذا أراد أن يُعَلِّمَ الصبيَّ العَوْمَ يُحاذيه إلىٰ أن يَصْلُحَ للعَوْمِ وَحْدَه، فإذا

(١) يُزَجُّوا: ماضيه: زَجّى أي دَفَعه برفق. وهي في المطبوع: (يترقوا).

صَلَحَ زَجَّهُ في اللُّجَّة وتركه.

وإياك أن تعتقد أن لا يُنْتَفَعُ [1] بالأنبياء والأولياء والصالحين، فإنهم وسيلةٌ جعلها اللهُ إليه لأنّ كلَّ كرامةٍ للولي هي شهادةٌ بصدقِ النبي ﷺ لأنها جَرَتْ على أيدي الأولياء مثل خَرْقِ العادات، والمشي على الماء، والطيرانِ في الهواء، وأخبارِ المُغَيَّبات، ونبعِ الماء، ونحوِ ذلك؛ لأنهم لم يُعْطَوا ذلك إلا لأَجْلهم [2].

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي - رضي الله تعالى عنه - أنه قال: كِلْ نفسَكَ وزِنْها بالصلاة، فإن انتهتْ عن الحظوظ فاعلمْ أنك سَعِدْتَ (قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وإلاّ فابْكِ على نفسك إذا جَرَرْتَ رِجْلك إلى الصلاة جَرّاً، فهل رَأَيْتَ حبيباً لا يريد لقاءَ حبيبه؟!) [3] فمن أراد أن يعرف حقيقتَهُ عندَ الله، ويَنْظُرَ حالَهُ مع الله، فَلْيَنظرْ إلى صلاته: إما بالسكونِ

(١) في المطبوع: (لا يُتَوَسَّلُ) وما أثبتناه من المخطوط.
(٢) أي: هذه الكرامات الظاهرة على أيدي الأولياء جرت لأجل الأنبياء لأنها شهادة بصدقهم.
(٣) ما بين القوسين جاء مختلفاً عن هذا الترتيب في المطبوع.

والخشوع، أو بالغَفلةِ والعَجَلة، فإنْ لم تكن بالوصفين الأَوَّلَين فَاحْثُ [1] التراب على رأسك؛ فإنّ من جالس صاحبَ المسك عَبِقَ عليه من ريحه، فإنّ الصلاة مجالسةُ الله تعالىٰ، فإذا جالَسْتَهُ ولم يُحَصِّلْ لك منه شيءٌ دلَّ ذلك على مرض في قلبك وهو إمّا كِبْرٌ، أو عُجْبٌ، أو عَدَمُ أدب. قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] فلا ينبغي لمن صلّى أن يُسرع الخروجَ، بل يذكرَ اللهَ تعالىٰ ويستغفرَهُ من تقصيره فيها؛ **فَرُبَّ صلاةٍ لا تصلُحُ للقَبول فإن استغفرتَ اللهَ بعدها قُبِلَتْ. كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات.**

كم فيك من الكوامن فإذا أُوْرِدَتْ عليها الواردات أَظْهَرَتْها [2]، وأعظمُها ذنْباً: الشكُّ في الله، والشكُّ في الرزق **شكٌّ** في الرازق.

الدنيا أحقَرُ من أن يُعالَ [3] همُّها. صَغُرت الهِمَم فَعالَتْ

(١) حثا، يحثو ويحثي أي: ألقىٰ.
(٢) أي: كم فيك من الأمور الخفية، ولا تظهر إلا بورود المحن ومجيئها.
(٣) يُعال: يُحْمَل.

صغيراً، فلو كنتَ كبيراً لَعُلْتَ الكبير. من عالَ الهمَّ الصغير وترك الهمَّ الكبير استقْلَلْنا [1] عقلَه.

قُمْ أنت بما يلزَمُكَ من وظائف العبودية، وهو يقوم بما التزمه. أيرزقُ الجُعَلَ و الوَزَغَ وبَناتِ وِرْدان[2] وينسى أن يرزقَك؟! قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

كلُّ مَنْ كان مراعياً لحق الله تعالىٰ، لا يُحدِثُ اللهُ حَدَثاً في المملكة إلا أَعْلَمَه. نظر بعضهم إلى جماعة فقال لهم: هل فيكم مَنْ إذا أحدث اللهُ سبحانه وتعالىٰ في المملكة حَدَثاً أعلمه؟ قالوا: لا، فقال لهم: أبْكوا على أنفسكم [3].

كان المتقدمون من السلف رضي الله عنهم يسألون الشخص عن حاله ليستثيروا منه الشكر، والناسُ اليومَ ينبغي ألاّ يُسْأَلوا فإنَّكَ إن سألْتَ تستثيرُ منهم الشَّكوىٰ [4].

---

(١) استقلّه: عَدَّه قليلاً. وهي في المطبوع: (استسفلنا).

(٢) الجُعَل والوَزَغ وبناتُ وِرْدان: حشرات.

(٣) قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

(٤) روى الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما =

عن بعض النَّبّاشين أنه تاب إلى الله تعالى، فقال يوماً لشيخه: يا سيدي نَبَشْتُ ألف قبر، فَوَجَدْتُ وُجوهَهُمْ مُحَوَّلَةً عن القِبْلة! فقال له الشيخ: يا ولدي، ذلك من شَكِّهم في رزقهم.

يا عبد الله، إذا طلبتَ من الله فاطلب منه أن يُصْلحك من كُلِّ الوجوه، وأن يُصلحك بالرضىٰ عنه في تدبيره لك.

ثم إنك عبد شَرود [1] طلب منك أن تَعْبُرَ إليه فَفَرَرْتَ منه، فإن الفِرارَ يكون بالأفعال، والأحوال، والهمم. فإذا كنت في صلاتك تسهو، وفي صومك تَلْغو، وفي لُطْفِ الله تشكو، أفما أنت شارد؟!

= قال: قال النبي ﷺ لرجل: «كيف أصبحت يا فلان»؟ قال: أحمد الله إليك ـ أي معك ـ يا رسول الله. فقال الرسول ﷺ: «هذا الذي أردت منك». (مجمع الزوائد) [١٠/ ١٤٠و٨/ ٤٦]. وروى عبد الله بن المبارك في «كتاب الزهد والرقائق»: عن علقمة بن مرثد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: إنْ كنا لعلنا نلتقي في اليوم مراراً يسأل بعضنا بعضاً عن حاله، وما نريد بذلك إلا الحمد لله عز وجل».

(١) يقال: شَرَدَ البعير أي: نَفَر، وشَرُود: كثير النُّفور والفِرار.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي اللهُ عنه أنه قال: بقيت مرةً في البادية ثلاثة أيام لم يُفْتَحْ لي بشيء [1]، فجاز عليّ بعض النصارىٰ فرأَوني متكئاً فقالوا: هذا قِسِّيسٌ من المسلمين، فوضعوا عند رأسي شيئاً من الطعام وانصرفوا، فقلت: يا لَلْعَجَب! كيف رُزِقْتُ على أيدي الأعداء، ولم أُرْزَقْ على أيدي الأحباء؟! فقيل: ليس الرجل من يُرْزَقُ على أيدي الأحباء، إنما الرجلُ من يُرْزَقُ على أيدي الأعداء.

يا هذا، اجعل نَفْسَكَ كَدابَّتِكَ، كلّما عَدَلَتْ عن الطريق ضَرَبْتَها فَرَجَعَتْ إلى الطريق، ولو فعلْت مع نفسك مثلَ ما تفعل بِدُبَّتِكَ، كلّما تَوَسَّخَتْ غسلْتَها، وكلما تقطَّعَ منها شيءٌ رقَّعْتَه وجَدَّدْتَه ـ كانت لك السعادة. فَرُبَّ رجلٍ ابْيضَّتْ لحيتُه وما جلس مع الله جلسةً يُحاسب فيها نفسَه فإنّ الشيخ مكينَ الدينِ الأسمرَ ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: كُنْتُ في البَداءَةِ أُحاسِبُ نفسي عند المساء فأقولُ: تكلّمتُ اليومَ بكذا وكذا، فأجد ثلاثَ كلماتٍ أو أربعاً. وكان عنده يوماً شيخٌ عمرُه نحوُ تسعينَ سنة، فقال له: يا سيدي، أشكو إليك كثرةَ

(١) في المطبوع: (لم يصح لي شيء).

الذنوب. فقالَ له الشيخُ: هذا شيءٌ لا نعرفه، وما أعرف أني عملت ذنباً قَطُّ [1].

كما أن للدنيا أبناءً من استند إليهم كَفَوه، فكذلك للآخرة أبناءٌ من استند إليهم أَغْنَوه. ولا تَقُلْ: طَلَبْنا فلم نجد، فلو طلبْتَ بصدقٍ لوجدْتَ. وسببُ عدمِ وِجْدانك عدمُ استعدادك، فإنَّ العروسَ لا تُجَلّى [2] على فاجِر، فلو طلبْتَ رؤيةَ العروس لَتَرَكْتَ الفُجور، ولو تركْتَ الفجورَ لرأيْتَ الأولياء، والأولياءُ كثيرون، لا يَنْقُصُ عددُهم [3]، ولو نَقَصَ واحدٌ منهم لَنَقَصَ نورُ النبوة.

إذا أَحْبَبْتَ حبيباً لن تصل إليه حتى تكون أهلاً للوصول إليه، وذلك حتى تَطْهُرَ مما أنت فيه من الزَّلَل.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ: أولياءُ اللهِ عرائس، والعرائسُ لا يراها المجرمون، إذا ثَقُلَتْ عليك الطاعةُ والعبادة، ولم تَجِدْ لها حلاوةً في قلبك، وتَخِفُّ

(١) في المخطوط: (وما عرفت أني ما عملت ذنباً قط).
(٢) تُجَلّىٰ: تُكْشَفُ وتُظْهَر.
(٣) ورد في المطبوع: (لا ينقص عددهم ولا مددهم)، وورد في المخطوط حذف (ولا مددهم).

عليك المعصيةُ، وتجدُ لها حلاوة، فاعلَمْ أنّك لم تصدُقْ في توبتك، فإنه لو صَحّ الأصل لَصَحّ الفَرْعُ [1].

ولَيْتَكَ أَطَعْتَ مَولاكَ كما يُطيعُكَ عبدُك، فإنَّكَ تُحبه ناهضاً في خدمتك دائماً، وأنت تُحبُّ الطاعةَ وتطلُبُ أن تَفْرُغَ منها مُسْرعاً، كأنك تنقُر بالمناقير، فياليت بصراً نَظَرْتَ به محاسنَ غيره عُوِّضْتَ عنه العمىٰ.

كَمْ حُصِّلَ لكَ الهَوانُ بوقوفك على أبوابِ المخلوقين!، وكم أهانوك وأنت لا تَرْجِعُ إلى مولاك!!

عن الشيخ مكين الدين الأسمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: رأيتُ في المنام حُوْرِيَّةً وهي تقول: أنا لك وأنت لي. قال: فبقِيتُ نحوَ شهرين أو ثلاثة أشهر لا أستطيع أن أسمع لمخلوقٍ كلاماً إلا تَقَيَّأْتُ لأجْلِ طِيبِ كلامها.

كفاك من الإدبار أنْ تفتحَ عينَيك في هذه الدار، قال الله

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كَذُبابٍ مَرّ على أنفه، فقال به هكذا». رواه البخاري. و(قال به هكذا): أهوىٰ بيده فوق أنفه.

تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

قَدَّر لك الصحةَ والمرض والغنى والفقر، والفرحَ والحُزن؛ حتىٰ تَعْرِفَهُ بأوصافه.

من صحبك يوماً أو يومين، ولم يَرَ منك نفعاً تَرَكَكَ وصَحِبَ غيرَك، وأنت تَصحَبُ نفسَك أربعين سنة ولم تَرَ منها نفعاً فَقُلْ لها: ارجعي يا نفسُ إلى رضا ربِّك!، طالما وافقْتُك في شهواتِكِ، فتبدَّلي بعد البَطالَةِ بالاشتغالِ بالله، وبعد الكلام بالصَّمْت، وبعد الوقوف بالأبواب: الجلوس بالخَلْوة، وبعد الأنس بالمخلوقين: الأنسَ بالخالق، وبعد قُرَناء السوءِ: مُعاشَرَةَ أهلِ الخير والصلاح.

اجعل أحوالك على ضِدِّ ما كنت عليه:

اجعلْ بَدَلَ السهر في معصية اللهِ: السهرَ في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا: الإعراضَ عنهم، والإقبالَ على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم: الإصغاءَ والاستماعَ لكلام الله عز وجل وذِكْرِه، وبعد الأكل بالشَّرَهِ والشهوة: الأكل القليل الذي يُعينك على الطاعة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. إنما عصى اللهَ مَنْ لم يعرفِ عِقابَه، وإنما ترك طاعةَ الله مَنْ لم يعرف ثوابَه. فَلَوِ اطَّلعوا على عذاب الله لما غَفَلوا، ولَو اطَّلعوا على ما أعدَّ الله لأهل الجنة لما تركوها طَرْفَةَ عين.

إذا صَحِبْتَ أبناءَ الدنيا جذبوك إليها، وإذا صَحِبْتَ أبناء الآخرة جذبوك إلى الله. قال رسول الله ﷺ: «المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1]. كما تختار لنفسك المآكلَ الطيبة التي لا ضَرَرَ فيها، والزوجةَ الحسناءَ لتتزوجَها، فكذلك لا تُوادِدْ إلا من يُعَرِّفُكَ الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ، واعلم أن لك ثلاثةَ أَخِلّاء:

أحدها: المالُ، تَفْقِدُهُ عند الموت.

والثاني: العِيالُ، يتركونكَ عند القبر.

والثالث: عملُك، لا يُفارقك أبداً!.

---

(١) في المطبوع بزيادة (يُحشر) في أوله. والحديث رواه أبو داود بلفظ: (الرجل على دين..) كما رواه الحاكم وأحمد والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ابْدَأْ فَاصْحَبْ من يَدْخُلُ معك قبرَك وتَأْنَسُ به[1]، فالعاقل من عقل عن الله أوامره ونواهيَه.

مثالك كالجُعَل[2] يعيش في الرَّوْثِ والعَذِرَة[3]، وإذا قُرِّب إليه الوَرْدُ ماتَ من رائحته. فَمِنَ الناسِ مَنْ هو جُعَليُّ الهِمَّةِ، فَراشيُّ العَقْلِ، فإن الفَراشَ لا يزال يرمي نفسه في النار حتىٰ تُحرِقَه، فكذلك أنت ترمي نفسَك في نار المعصية عَمْداً، فلو أردْتَ السيرَ إلى الله تعالىٰ شَدَدْتَ المَحْزِمَ، فأين الهمة؟!.

إنما تأكُلُ لِتعيشَ، ولا تعيشُ لِتأكل، فإن فعلْتَ ذلك فَمِثالُكَ على المَداوِدِ[4] كثير، ومِثْلُكَ في الدَّوابِّ كثير، فإنْ فعلْتَ ذلك فإنَّ أَسْبَقَ الخَيْلِ ما ضُمِّرَ[5]. تقول: هذه الليلة

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثلاثٌ: أهلُه، ومالُه، وعملُه، فَيَرْجِعُ اثنان ويبقىٰ واحد؛ يرجع أهلُه ومالُه، ويبقىٰ عمله». رواه البخاري ومسلم.

(٢) الجُعَل.: حشرة دُوَيْبَّة، تعيش في الأرواث وإذا شَمَّتِ الورد ماتت.

(٣) العَذِرة: ما يخرج من الإنسان.

(٤) المَداود: مكان الدود.

(٥) ضُمِّرِ: خَفَّ لحمُه وهُيِّيء للسِّباق.

أُقَلِّلُ الأكلَ فإذا حضرَ الطعام فكأنّهُ حبيبٌ مُفارِق، ومَنْ لم يُرِدِ اللهُ صلاحه تَعِبَتْ فيه الأقاويلُ. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

ما أهربَكَ من الهَوان، وما أوقَعَكَ فيه! تُهين نَفْسَك وتُلقيها في مواطن الردىٰ.

قال بعضهم: كُنْ مع الله كالطِّفْلِ مع أمه، كلّما دفعتْهُ أمُّه ترامى عليها لا يَعرفُ غيرها.

يا **عبدَ الله**، تنتخبُ لنفسك الطيِّبات، بل تنتخب لدابتك العَلَف، وتعامل الله بالمجازفة [1]!!. وربما قلبت عشرين بطيخة حتى تَصْلُحَ لك واحدةٌ لدهليز مرحاض، وتقعُدُ عند الأكل متربعاً، وربما طوَّلْتَ في الأكل، وإذا جئتَ إلى الصلاة نقرتَها نَقْرَ الديك، والوَساوسُ والخواطرُ الرَّديئةُ تأتيك في صلاتك. مثال مَنْ هذه حالُه كَمَنْ نَصَبَ نفسَهُ للهدف وقَعَد، والرماحُ والسهامُ تَقْصِدُهُ من كلِّ جانب، أَفَما هذا أحمق؟!.

ما مثالك إذا سَمِعْتَ الحكمةَ ولم تعمَلْ بها إلا كَمَثَلِ

(١) أي يتعامل مع نفسه ودابته بالتمحيص وانتقاء الأحسن، ثم يتعامل مع ربِّه بلا تمحيص بل على هواه.

الذي يَلْبَسُ الدِّرْعَ ولا يُقاتل: ألا فقد حُصِّلَ النداءُ على سِلْعَتِنا فَهَلْ من مُشْتَرٍ؟!.

قيمتُك قيمةُ ما أنت مشغولٌ به، فإنِ اشْتَغَلْتَ بالدنيا فلا قيمةَ لك؛ لأنّ الدنيا كالجِيْفَةِ لا قيمةَ لها.

أفضلُ ما يَطلبُ العبدُ من الله أن يكونَ مستقيماً معه. قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. فاطْلُب منه الهدايةَ والاستقامة، وهو أن تكون مع اللهِ في كل حالٍ بالذي يرضاهُ لك، وهو ما جاءَ به النبي ﷺ عن الله سبحانه وتعالىٰ.

مَنْ بَذَلَ للهِ صِرْفَ الودِّ سقاهُ اللهُ صِرْفَ الكَرَم.

مِثالُ السالكِ كَمَنْ يَحْفِرُ على الماء قليلاً قليلاً حتىٰ يَجِدَ الماء بعد التعب [1].

ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمطرتْ له سحابةٌ، فأخذ منها ما يحتاج إليه من غير تعب.

إذا أعطيتَ نفسَك كل ما تشتهي وتطلُبُ من الشهوات كنت كمن في بيته حية يُسَمِّنُها كلَّ يوم حتىٰ تقتله! ولو جعل

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: (حتىٰ يجد الثقب فينبع له الماء بعد الطلب).

اللهُ فيك الروحَ من غير نَفْسٍ لأطعْتَ وما عصَيت، ولو جعل فيك النَّفْسَ من غير رُوح لعصَيْتَ وما أطعْت ـ فلذلك تتَلَوَّن ـ [1] ولكنْ جعل فيك القلب، والروح، والنفس، والهوىٰ، كالنحلة جعل فيها اللسع والعسل: فالعسلُ ببِرِّهِ [2]، واللسْعُ بقهره، فأراد الله أن يكسر دعوى النفس بوجود القلب، ودعوىٰ القلب بوجود النفس [3].

يا عبد الله، طَلب منك أن تكون له عبداً فأَبَيْتَ أن تكون إلا ضدّاً، إقبالُك على الله إفرادُك له بالعبادة فكيف يرضىٰ لك أن تعبد غيره؟!. فلو أتيتنا تطلب العطاء منا ما أنصفتنا، فكيف [4] إذا أَقْبَلْتَ على مَنْ سِوَانا.

وَقَفْتَ الدنيا في طريق الآخرة، فَصَرَفْتَ الوصولَ إليها، ووَقَفْتَ الآخرةَ في طريق الحق فَمُنِعْتَ الوصولَ إليه [5].

---

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع وردت (فلذلك تتلوّن) بعد (جعل فيها اللسع والعسل).

(٢) في المخطوط: (بسره).

(٣) فإما أن تغلب النفس القلب وإما أن يقهر القلب النفس.

(٤) في المطبوع: (فكيف يرضىٰ).

(٥) أي: لا تطلب الدنيا فتنسى الآخرة، ولا تطلب الآخرة فتنسىٰ الله، وليكن همّك الوصول إلى الله.

إنَّ من لُطْفِ اللهِ بك أن يَكْشِفَ لك عن عيوبِ نفسك، ويَسْتُرَها عن الناس.

إذا أُعْطِيْتَ الدنيا ومُنِعْتَ الشُّكرَ فيها فهي محنة في حقك. قال رسول الله ﷺ: «قليلُ الدنيا يُلهي عن طريق الآخرة» [1].

كان لبعضهم زوجة فقالت له يوماً: لا أقدر على أن تغيبَ عني ولا أن تشتغلَ بغيري، فَنُوْدِيَ: إذا كانت هذه لا خالقةً ولا مُوْجِدَة، وهي تحب أن تجمع قلبك عليها، فكيف لا أحب أنا أن تجمع قلبك علي؟!.

كنت مرة عند الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه، فقلت: في نفسي أشياء، فقال الشيخ: إن كانت النفْسُ لك فاصنعْ بها ما شئتَ، ولن تستطيعَ ذلك. ثم قال: النفسُ كالمرأة: كلّما أَكْثَرْتَ خِصامَها أكثَرَتْ خصامَك، فسَلِّمْها إلى ربها يفعلْ بها ما يشاء، فربما تعبْتَ في تربيتها فلا تنقادُ لك. فالمسلمُ مَنْ أسلم نفسه إلى الله بدليل قوله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) لم أقف عليه فيما رجعت إليه من المصادر.

﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه، وقطع علائقك من المخلوقين حتى تَرْجِعَ إليه.

كم تطلبُ نفسَك إلى الطاعة وهي تتقاعد! إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء، فإذا ذاقتِ المنة[1] جاءت اختياراً. فالحلاوة التي كانت تجدها في المعصية تَرْجِعُ تجدُها في الطاعة.

مثالُ الإيمان في القلب كالشجرةِ الخضراء، فإذا كَثُرَت عليها المعاصي يَبِسَتْ وفَرَغَ إمدادُها[2] فمن أحب القيامَ بالواجبات فَلْيتركْ المحرمات، ومن ترك المكروهات أُعِينَ على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وَسَّعَ عليه توسعة لا يسعها عقله، وأباح له حضرته، ومن ترك استماع ما حُرِّم عليه أسمعه كلامه[3]. ولكن ما أَهْوَنَ القُرْبةَ[4] التي

(١) أي: عطاء الله وكرمه.
(٢) الإمداد: المعونة والتيسير وحصول المنافع.
(٣) في المطبوع: (قل كلامه).
(٤) في المطبوع: (الغرابة).

فيها هوىٰ نفسك عليك[1]، وما أثقل ما ليس فيه هوىٰ! مثالُهُ أن تَحُجَّ تَنَفُّلاً، فإن قيل لك: تصدَّقْ بذلك شَقَّ عليك؛ لأنّ أَمْرَ الحج يُرىٰ، فَلِلنَّفْسِ فيه حظ، والصدقة تُطوىٰ وتُنسىٰ. وكذلك دَرْسُكَ العلمَ لغير الله، فإنك تدرسُ الليلَ كلَّه ونفسُك طيبةٌ بذلك، فإذا قيل لك: صَلِّ بالليل رَكعتين شَقَّ ذلك عليك؛ لأن الرَّكعتين بينك وبين الله تعالى، ليس فيهما للنفس حظ، والقراءة والدرس للنفس فيها حظُّ مشاركة للناس، فَلأَجْلِ ذلك خَفَّ عليها.

قال بعضهم: تاقَتْ نفسي إلى الزواج، **فرأيتُ** المحراب قد انشقَّ وخرج منه نعلٌ من ذهب، مكلَّلٌ باللؤلؤ، فقيل لي: هذا نعلها فكيف وجهُها؟ فانقطعت شهوةُ النكاح من قلبي.

من هُيِّئَتْ له المنازل لم يُرض له بالقعود على المزابل، فاعمل الأعمال الصالحات بينك وبينَ اللهِ سِرّاً ولا تُطْلِعْ عليها أهلَك، واجعلْه مُدَّخراً عند الله تجدْهُ يوم القيامة، فإن النفسَ لها تَمَتُّعٌ بذِكرِ العمل. صام بعضهم أربعين سنة، ولم يعلَمْ به أهلُه.

(١) أي ما أهون عليك العبادة التي تجد لها هوى في نفسك.

لا تُنفق أنفاسَك في غير طاعة الله، ولا تنظُرْ إلى صِغَرِ النَّفَس بل انظر إلى مقداره، وإلى ما يعطي اللهُ فيه للعبد [1] فالأنفاس جواهر، وهل رأيت أحداً يَرْمي جوهرةً على مزبلة؟!

أَفَتُصْلِحُ ظاهرَك وتُفْسِدُ باطنَك؟! فمثالك كالمجذوم [2] لَبِسَ ثياباً جديدة، ويخرج منه في الباطن القيحُ والصديد [3]، فأنت تُصْلِحُ ما ينظر إليه الناس، ولا تُصلح قلبَكَ الذي هو لربك!

الحكمة كالقيد، إن قَيَّدْتَ بها نفسَك امتنعَتْ، وإن رميتَها تَسَيَّبَتْ، ويُخاف عليك. مثالُ ذلك كالمجنون في بيتك، يُخَرِّبُه ويُقَطِّعُ الثياب، فإذا قَيَّدْتَهُ استرحْتَ منه، وإذا طرحْتَ القيدَ وخرجْتَ فالضررُ باق.

يا أيها الشيخ، قد أَفْنَيْتَ عمرَك فاستدرِكْ ما فاتك، قد لَبِسْتَ البَياض وهو الشيب، والبياض لا يحمل [4] الدَّنَس.

(١) في المطبوع: (يعطي الله العبد).
(٢) المجذوم: مَنْ أصيب بداء الجُذام.
(٣) صديدُ الجرْح: ماؤه الرقيق المختلط بالدم.
(٤) أي: لا ينبغي لمن شابَ أن يدنس نفسه بالمعصية.

مثال القلب كالمرآة، ومثال النَّفْس كالنفَس كلما تَنَفَّسْتَ النفَسَ على المرآة سَوَّدَها.

قلبُ الفاجر [1] كَمِرآةِ العجوز التي ضَعُفَتْ همتها أن تَجْلُوَها وتنظرَ فيها، وقلبُ العارف كمرآة العروسِ، كلَّ يوم تنظرُ فيها، فلا تزالُ مصقولة.

هِمَّةُ الزاهدين في كثرةِ الأعمال، وهمة العارفين في تصحيح الأحوال [2].

أربعةٌ تُعِيْنُكَ على جَلاء قلبك: كثرةُ الذكْر، ولُزومُ الصمت، والخَلوة، وقِلَّةُ المَطْعَم والمَشْرَب.

أهلُ الغفلةَ إذا أصبحوا يتفقَّدون أموالهم، وأهلُ الزهد والعبادة يتفقدون أحوالَهم، وأهلُ المعرفة يتفقدّون قلوبَهم مع الله عز وجل.

ما من نَفَسٍ يُبْدِيه اللهُ تعالى فيك من طاعة أو مرض أو فاقة [3] إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك، ومن طلب الدنيا

(١) في المطبوع: (العاجز).
(٢) الأحوال: الحركات القلبية.
(٣) الفاقة: الفقر والحاجة.

بطريق الآخرة كان كَمَنْ أخذ مِلْعقة ياقوت يَغْرِفُ بها العَذِرَة [1]، أفما يُعَدُّ هذا أحمق؟!.

لا تَعتقدْ أن الناس فاتَهُمُ العِلْمُ، بل فاتهم التوفيقُ أكثرَ من العلم.

أولُ ما ينبغي لك أن تبكي على عقلك، فكما يقعُ القَحْطُ في الكَلأ يقع في عقول الرجال. وبالعقلِ عاش الناسُ مع الناس، ومع اللهِ تعالىٰ: مع الناسِ بِحُسْنِ الخُلُق، ومع الله باتِّباع مرضاته.

إنْ مَنَّ اللهُ عليك بثلاث فقد مَنَّ عليك بالنعمة الكبرىٰ:

الأولى: الوقوفُ على حدوده [2].

والثانية: الوفاءُ بعهوده.

والثالثة: الغرق في شهوده [3].

وما سَبَبُ استغرابِكَ لأحوال العارفين إلا استغراقُكَ في القطيعة ولو شاركْتَهم في الأسفارِ لشاركْتَهم في الأخبار، ولو

(١) العَذِرَة: ما يخرج من الإنسان.
(٢) أي: عدمُ تعدِّي حُرُمات الله.
(٣) الشهود: أن تلاحظ الحقَّ سبحانه حتىٰ كأنك تراه نُصْبَ عَيْنَيك.

شاركْتَهم في العناء [1] لشاركتهم في الهناء.

ما مثال نفسك وقت الرضا إلا كالبعير المعقول [2]، فإذا سَيَّبْتَه انطلق، قال رسول الله ﷺ: «لَقَلْبُ ابنِ آدمَ أشدُّ تقلُّباً من القِدْر على النار إذا غَلَتْ» [3].

فكمْ مَنْ كان في جَمْعٍ مع الله أتته الفرقة في نَفَس واحد، وكم من بات في طاعة الله ما طلَعَتْ عليه الشمسُ حتى دخلَ في القطيعة، فالقلبُ بمثابة العين، والعينُ لا يُرىٰ بها كلِّها، بل بمقدار العَدَسة منها، فكذلك القلب لا يراد منه اللَّحْمانية، بل اللطيفة التي أودعها الله فيه وهي المُدْرِكَة، وجعل اللهُ القلبَ معلقاً في الجانب الأيسر كالدَّلْو، فإنْ هَبَّ عليه هوىٰ الشهوة حرّكَه، وإن هبّ عليه خاطِرُ التُّقىٰ حركه، فتارةً يغلب عليه خاطرُ الهوىٰ، وتارة يغلبُ عليه خاطِرُ

(١) في المخطوط (الفَناء) وهو: رؤيةُ الحق سبحانه دون الخلق بحيث يضمحل معه وجود كل شيء.
(٢) المعقول: المربوط. وسيَّبتَه: أطلَقْتَه.
(٣) رواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك ورمز السيوطي لصحته في «الجامع الكبير» وأورده بلفظ: «لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القِدْر إذا استجمعَتْ غلياناً».

لتُقىٰ؛ حتى يُعَرِّفَكَ مرةً مَنَّه [1] ومرةً قَهْرَه. فمرةً يُغلِّبُ عليه خاطرَ التقىٰ ليمدَحك، ومرة يُغَلِّبُ عليه خاطرَ الهوىٰ ليَذُمَّك. فالقلبُ بمثابة السَّقْف، فإذا أُوْقِدَ في البيت نارٌ صَعِدَ الدُّخَانُ إلى السقفِ فَسَوَّده، فكذلك دُخانُ الشهوة، إذا نبت في البدن صَعِدَ دُخانه إلى القلب فسوَّده.

إذا ظلمكَ الغَوِيّ فارجع إلى القوي، ولا تَخَفْ منه فَيُسَلَّطَ عليك.

مثالُ مَنْ يشهَدُ الضررَ من المخلوقين كَمَنْ ضرب الكلبَ بحجر، فأقبل الكلبُ على الحجر يَعَضُّه، ولا يعرفُ أنّ الحجر ليس بفاعلٍ، فيكون [2] هو والكلبُ سواء.

ومثال من يشهدُ الإحسانَ من المخلوقين كالدابة إذا رأت سايسَها بَصْبَصَتْ [3]، ويدنو إليها مالكُها فلا تُلقي إليه بالاً. فإن كنتَ عاقلاً فاشهدِ الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدْها من غيره.

---

(١) المَنّ: الإنعام.

(٢) أي الإنسان الذي يشهد ويرىٰ الضرر من المخلوقين لا من خالقهم.

(٣) بصبصت: حركت ذيلها، كناية عن إقبالها عليه.

ليس التائهُ مَنْ تاه في البرية، بل التائهُ من تاه عن سبيل الهدىٰ.

تطلبُ العِزَّ من الناس، ولا تطلبُه من الله، فَمَنْ طلبه من الناس فقد أخطأ الطريقَ، ومَنْ أخطأ الطريقَ لم يَزِدْهُ سَيرُه إلا بعداً، فهذا هو التائه حقاً.

إذا قلت: لا إله إلا الله، طالبَكَ اللهُ بها وبحقِّها، وهو ألاّ تَنْسُبَ الأشياءَ إلا إليه.

مثالُ القلبِ إذا أَسْلَمْتَهُ إلى النفس كمن تعلَّق بغريقٍ فغرق كلُّ واحد منهما، ومثالُ النفس إذا أسلمتها للقلب كمن أَسْلَمَ نفسه إلى عَوّام قوي فسَلَّمَها، فلا تكنْ كمن أسلم قلبَهُ إلى نفسه! هل رأيتَ بصيراً قَلَّدَ نفسَهُ إلى أعمىٰ يقوده؟!.

إن أمكنَكَ أن تُصْبح وتُمْسي وما ظلمْتَ أحداً من العباد فأنت سعيد، فإن لم تظلم نفسَك فيما بينك وبين الله، فقد تكمَّلَتْ لك السعادة، فأَغْلِقْ عينيك، وسُدَّ أُذُنَيك، وإياكَ إياكَ وظُلْمَ العباد!.

ما مثالُكَ في صِغَرِ عَقْلِك، وكونِكَ لا تعلم ما عليك من الملابس إلا كالمولود، تكسوه أمُّه أحسنَ الملابس وأفخرَها، وهو لا يشعر، وربما دَنَّسَها ونَجَّسَها، فَتُسرع إليه أمُّه

وتكسوه أخرى، لِئلاّ يراهُ الناسُ كذلك، وتغسلُ ما تَنَجَّسَ، وهو لا يعلم ما فُعِلَ به لِصِغَرِ عقله.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قيل لي: يا علي، طَهِّرْ ثيابَك من الدَّنَس تَحْظَ [1] بِمَدَدِ الله في كل نفس. فقلت: وما ثيابي؟ فقيل لي: إن اللهَ كساكَ حُلَّةَ [2] المعرفة، ثم حُلّة التوحيد، ثم حلّة المحبة، ثم حُلّة الإيمان، ثم حلّة الإسلام، فمن عَرَفَ اللهَ صَغُرَ لديه كلُّ شيء، ومن أحبّ اللهَ هان عليه كلُّ شيء، ومن وحَّد اللهَ لم يُشْرِكْ به شيئاً، ومن آمن بالله أَمِنَ من كل شيء، ومَنْ أسلم لله قلّما يعصيه، وإن عصاه اعتذرَ إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره. قال: ففهمت من ذلك قولَه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

يا مَنْ عاش وما عاش، تخرجُ من الدنيا وما ذُقْتَ أَلَذَّ شيءٍ فيها، وهي مناجاةُ الحق سبحانه، ومخاطبتُه لك، فأنت مُلْقىً جيفةً بالليل، فإن دُفِعْتَ عنه فاستغِثْ بالله، وقل: يا ملائكةَ اللهِ ويا رسول ربي، فاتتني الغنيمةُ التي نالوها من

(١) كذا في المخطوط، وهي في المطبوع (تحفظ).
(٢) الحُلّة: الثوب.

لَذَّة المناجاة، ووِدادِ المُصافاة.

إذا كان العبد مُعْجباً بطاعتِه، متكبِّراً على خَلْقه، ممتلئاً عَظَمة يطلُبُ من الخَلْقِ أن يُوَفُّوا حقوقَه، ولا يُوفّي حقوقهم، فهذا يُخشىٰ عليه سوءُ الخاتمة، والعياذُ بالله!. وإنْ كان إذا فعل معصيةً تراه باكياً حزيناً، منكسراً ذليلاً، يتطارح على أرجُل الصالحين، ويزورهم معترفاً بالتقصير، فهذا يُرْجىٰ له حسنُ الخاتمة.

إذا طلبْتَ قارئاً وجدْتَ مالا يُحصى، وإذا طلبْت طبيباً، وجدْتَ كثيراً، وإذا طلبْتَ فقيهاً وجدت مثلَ ذلك، وإنْ طلبْتَ من يَدُلُّكَ على الله، ويُعَرِّفُكَ بعيوبِ نفسِك لم تَجِدْ إلا قليلاً، فإن ظَفِرْتَ به فأَمْسِكْهُ بِكِلتا يَدَيك.

إن أردْتَ أن تُنْصَرَ فَكُنْ كُلَّكَ ذِلَّةً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. إن أردتَ أنْ تُعْطى فكن كُلَّكَ فقراً: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

تكونُ في وَسَطِ النهرِ وأنت عطشان، تكونُ معه في الحضرة وأنت تطلُب الاتصالَ، كأنّ العبادَ لم يتواصلوا إلى الآخرة إلا بكثرة المآكِلِ والمشارب، أَوَ قيلَ لهم: هذه

توصلكم إلىٰ الآخرة؟! ولكنْ ما أَرْخَصَ نفسَك عليك! لولا هوانُها عليك ما عرَّضْتَها لعذاب الله تعالىٰ، وما أغلاها في طلب الدنيا وجمعها! والعَجَبُ كلُّ العجبِ في مَنْ يسألُ المنجمَ عن حاله، ولا يسأل كتابَ اللهِ وسنةَ رسول الله ﷺ.

إذا ضَعُفْتَ عن العبادة فَرَقِّعْ عبادتَك بالبكاء والتضرُّع.

وإذا قيل لك: مَنْ يُبكى عليه؟ فقلْ: عبدٌ عُوْفِيَ فأنفقَ عافيتَه في معصيةِ الله!.

إذا نِمْتَ على تخليطٍ رأيتَ التخليطَ في منامك، بل ينبغي لك أن تنام على طهارة وتوبة، فيَفتح قلبَك بنوره. ولكنْ مَنْ كان في نهاره لاغياً، كان في ليله عن الله ساهياً.

إذا رأيتَ وَلِيّاً لله تعالىٰ فلا يمنعْكَ إجلالُهُ من أن تَقْعُدَ بينَ يدَيهِ متأدباً وتتبرَّكَ به.

واعلم أن السماء والأرض لَتَتَأَدَّبُ مع الوليِّ كما يتأدَّبُ معه بنو آدم. فمن فَرِحَ بالدنيا إذا جاءته فلقد ثَبَتَ حُمْقُه، وأَحْمَقُ منه مَنْ إذا فاتتْه حَزِنَ عليها. فمثالُكَ كَمَنْ جاءتْه حَيّةٌ لِتَلْدَغَه، ثم مضتْ وسلَّمه الله تعالى منها، فحزنَ عليها أَنْ لم تَضُرَّه.

من علامات الغَفْلةِ وصِغَرِ العقل: أَنْ تعولَ همّاً هل يقعُ

أم لا، وتتركَ أن تعولَ همّاً لا بُدَّ من وقوعه، وتصبحَ وتقول: كيف يكونُ السعرُ غداً، وكيف يكون الحالُ في هذه السنة، وألطافُ اللهِ تأتي من حيثُ لا تعلم، والشكُّ في الرزقِ شكٌّ في الرازق، وما سَرَقَ السارقُ، وما غَصَبَ الغاصِبُ إلا رِزْقَه، فما دمت حياً لا يَنْقُصُ من رزقك شيء.

كفى بك جهلاً أن تعول الهمَّ الصغير، وتتركَ الهمَّ الكبير. عُلْ هَمَّ: هلْ تموتُ مسلماً أو كافراً؟ عُلْ هَمَّ: هل أنت شقيٌّ أو سعيد؟ عُلْ هَمَّ النارِ الموصوفةِ بالأبدية التي لا انتهاء لها! عُلْ هَمَّ أَخْذِ الكتاب باليمين أو بالشِّمال. هذا هو الهمُّ الذي يُعال، لا تَعُلْ هَمَّ لُقْمة تأكلُها أو شَرْبة تشرَبُها. أَيَستخدمُكَ الملكُ ولا يُطعمَك؟! أتكونُ في دار الضيافة وتضيعَ؟!.

إنّ أَحَبَّ ما يُطاعُ اللهُ به: الثقةُ به.

لأَنْ تكون خاملاً في الدنيا خيرٌ لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة[1].

هذه صفاوة العمر وغَرْبَلَتُهُ، يا من لا يأكل الحِنْطَةَ إلا مغربلةً، لا بُدَّ لك أن يُغَرْبَلَ عملُك فلا يبقى لك إلا ما أخلصْتَ فيه، وما عدا ذلك يُرمىٰ، وأكثر ما يُخشىٰ عليك

(١) الخامل: المجهول من الناس، الذي لا يُذكر.

مخالطةُ الناس، ولا يكفيك أن تسمع بأذنيك بل تشاركهم في الغِيبة، وهي تَنْقُضُ الوضوءَ، وتُفْطِرُ الصائم.

كفى بك جهلاً أن تغارَ على زوجتك ولا تغارَ على إيمانك! كفىٰ بك خيانةً أن تغارَ عليها لأجلِ نفسك، ولا تغارَ على قلبِكَ لأجلِ ربك، إذا كنت تحفظ ما هو لك أَلاَ تحفَظُ ما هو لِرَبِّك؟!.

إذا رأيتَ مَنْ يصبح مهموماً لأجل الرزق فاعلمْ أنه بعيد من الله، فإنه لو قال لك مخلوق: لا تشتغلْ غداً بسبب، وأنا أعطيكَ خمسةَ دراهم، وَثِقْتَ به، وهو مخلوق فقير، أَفَما تكتفي بالغنيِّ الكريم الذي ضَمِنَ لك رزقَكَ مع أَجَلِك؟!.

قال الشاعر:

إذا العشرونَ من شعبانَ وَلَّتْ ... فواصِلْ شُرْبَ ليلِكَ بالنهارِ
ولا تشربْ بأقداحٍ صِغارٍ ... فقد ضاقَ الزمانُ على الصِّغارِ

فمعناه عنده: إذا مضت العشرون من شعبان فقد قَرُبَ رمضان يقطَعُ علينا الشراب. ومعناه عند أهل الطريق: إذا خَلَّفْتَ أربعينَ سنةً وراءَ ظهرِك فواصِلْ العملَ الصالح بالليل والنهار؛ لأن الوقت قد قَرُبَ إلى لقاءِ الله عز وجل، فليس

عملُكَ كَعَمَلِ مَنْ كان شاباً ولم يضيِّعْ شبابَه ونشاطَه، وأنت قد ضيعْتَ شبابَكَ ونشاطَكَ.

هَبْ أنك تريد الجِدَّ ولكنْ لا تساعدُك القُوىٰ، فاعملْ على قَدرِ حالك ورَقِّعِ الباقيَ بالذكر؛ فإنه لا شيءَ أسهلُ منه، يُمكنُكَ في حال القيام والقعود والاضطجاع والمرض، فهذا أسهلُ العبادات وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «وليكن لسانُكَ رطباً بذكر الله»[1]. وأيُّ دعاءٍ أو ذكرٍ سَهُلَ عليكَ فواظِبْ عليه، فإنَّ مَدَدَهُ من الله عز وجل، فما ذكرتَهُ إلا بِبِرِّه، وما أعرضْتَ عنه إلا بِسَطوتِهِ وقَهرِه، فاعملْ واجتهدْ فالغفلةُ في العمل خيرٌ من الغفلةِ عنه.

ترى حالك حال الزاهدين في الفَضْل؛ لأن الطالبَ لا ينقطعُ عن الأبواب بل تجدُهُ واقفاً عليها، فمثالُه كالثكلىٰ التي ماتَ ولدها، أَتُراها تَحْضُرُ الأعراسَ والأفراح والولائم؟! بل هي مشغولة بِفَقْدِ ولدها.

---

(١) رواه التِّرْمِذي وقال: حديث حسن وهو بلفظ: . . أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كَثُرَتْ عليّ فأخبرْني بشيء أتَشَبَّثُ به. قال: «لا يزالُ لسانك رطباً من ذكر الله تعالىٰ» كما رواه أحمد وابن ماجة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وكَم يُرسلُ لك المولىٰ الصنائع وأنت عبدٌ شرود؛ فمثالك كالطفل في المهد كلّما حُرِّكَ نام. ولو أرسل لك الملك خِلْعَةً [1] ما أصبحت إلا على بابه، فاغتنمْ أوقاتَ الطاعات واصطبرْ عليها.

إن طلبْتَ أن تعصيَهُ فاطلبْ مكاناً لا يراكَ فيه أحدٌ، واطلبْ قوةً من غيره تعصيه بها، ولن تستطيع شيئاً من ذلك لأن الكلَّ من نعمه، أتأخذُ نِعَمَهُ وتعصيَهُ بها؟!. بل تَفَنَّنْتَ [2] في المخالفات، مرةً بالغِيبة ومرةً بالنميمة ومرة بالنظَر، وما بنيتَهُ في سبعين سنة تَهْدِمُه في نَفَسٍ واحد.

يا هادمَ الطاعات.. ما سَلَّطَ اللهُ عليك الفاقةَ [3] إلا لترفعَ حالتَكَ إليه، ولتَجْمعَ عليه، فيا مَنْ يُغرقُ نفسَه بالشهوات والمعاصي، ليتَكَ أعطيتَها ذلك في المباحات، فَمَنْ عاملْتَهُ بالدنايا وعاملك بالمِنَنِ كيف لا تحبُّه؟! من عاملَك بالكرم وعاملتَهُ باللؤم كيف لا تحبه؟!.

ما أحدٌ يصحبُك فينفعَك، وكلُّ من يصحبُك إنما

(١) الخِلْعَة: العطيّة.
(٢) في المخطوط: (تَتَعَنَّتْ) أي: تطلب الزلّات.
(٣) الفاقة: الحاجة والفقر.

يصحبك لنفْسه، وإنما تحبُّك الزوجة لِتَجتنيَ منك مطايبَ العيش والملابس، وكذلك الولد يقول: أَشُدُّ بك ظهري، فإذا كَبِرْتَ ولم تَبْقَ فيك قوةٌ ولا بقيةٌ [1] رفضوك!!

لو انقطعْتَ عن الخَلْقِ لَفَتحَ الله لك بابَ الأُنْس به تعالىٰ؛ لأن أولياء الله قهروا أنفسهم بالخَلْوَةِ والعُزْلة، فسمعوا من الله وأَنِسُوا به، فإن أردتَ أن تستخرج مرآةَ قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا ـ وهو الأُنْسُ بالخَلْق ـ وايش [2] جرىٰ لفلان واتفق لفلان؟ ولا تَقعُدْ على أبواب الحارات فمَنْ استعدَّ استمد، فإذا هيَّأَ لك [3] الاستعداد فتح لك باب الاستمداد، ومَنْ أَحْسَنَ قَرْعَ الباب فُتِحَ له، فَرُبَّ طالبٍ أساءَ قرع الباب فَرُدَّ لسوءِ أدبه ولم يُفْتَحْ له.

أكثرُ ما أوتي العباد، من قلّةِ الصمت. فلو تَقَرّبْتَ [4] إلى الله لسمعْتَ مخاطبته على الدوام، في سوقك وفي بيتك، ولكنْ من استيقظ شَهِد، ومن نام لم تسمع أُذُنا قلبِه، ولم

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: (بغية).
(٢) ايش: أصلها: أيّ شيء؟ وفي المطبوع: (انسَ).
(٣) كذا في المطبوع، وفي المخطوط: (هيّأت للاستعداد).
(٤) في المخطوط: (نَفَرْتَ).

تَشْهَدْ بصيرتُه، ولكنّ الحجابَ مُرْخىٰ، ولو أَنّ العباد فَطِنُوا لم يُقْبِلوا إلا على الله، ولم يجلِسوا إلا بين يديه، ولم يَسْتفتُوا غيرَه، لقوله ﷺ: «استَفْتِ قلبَكَ، وإنْ أفتوكَ»[1] لأنّ الخواطرَ الإلهامية[2] تأتي من الله تعالىٰ فهي موافقة، وربما أخطأ المفتي والقلبُ لا يقبل الخطأ، وهذا مخصوصٌ بالقلوبِ الطاهرة، وإنما يُستفتىٰ عالم، ولا عِلْمَ لِمَنْ غَفَلَ عن الله تعالى.

كانوا رضي الله عنهم لا يدخلون في شيء بنفوسهم، ولكنْ من اللهِ وبالله، وإن المسافةَ بَعُدَتْ بين الأولياء والصحابة، فجُعلَتْ الكراماتِ جَبْراً لما فاتهم من قُرْبِ

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» بلفظ: «استفتِ قلبك وإن أفتاك المُفْتُون» وقال النووي في «الأربعين حديثاً»: حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين: أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن. قال الغزالي في «الإحياء» عند هذا الحديث: (وما أعزَّ مثل هذا القلب! ولذلك لم يَرُدَّ عليه السلام كلَّ أحد إلى فتوىٰ القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله). وقال أيضاً إن استفتاء القلب إنما هو (حيث أباح المفتي، أما حيث حرمه فيجب الامتناع). انظر «الإحياء: ٢/١١٧ ـ ١١٨».

(٢) في المطبوع: (الإلهية).

المتابعة التامة، فإن من الناس مَنْ يقول: إن الأولياء لهم الكرامات، والصحابة لم يكن لهم ذلك. بل كانت لهم الكرامات العظيمة، بصحبتهم له ﷺ، وأيُّ كرامةٍ أعظمُ منها؟!.

واعلم أن كلَّ صلاة لا تنهى صاحبَها عن الفحشاء والمنكر لا تُسمّىٰ صلاةً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وأنت تخرجُ من الصلاة ومن مناجاة الحق سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومناجاةِ الرسول ﷺ بقولك: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، وهذا في كل صلاة، ثم تخرجُ إلى الذنوب بعد هذه النعم التي أنعمَ اللهُ بها عليك؟!.

عن الشيخ أبي الحسنِ الشاذليِّ رضي الله عنه، أنه كان يَحضُرُ عنده فقهاءُ الإسكندرية والقاضي، فجاؤوا مرة مختبرين للشيخ، فتَفَرَّسَ فيهم[1]، وقال: يا فقهاءُ يا فقهاءُ! هل صلَّيتُم قَطُّ؟ فقالوا: يا شيخُ وهل يترك أحدُنا الصلاة؟! فقال لهم: قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ

(١) تَفَرَّس: تثبَّتَ ونظر.

جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢] فهل أنتم كذلك: إذا مسَّكُمُ الشرُّ لا تجزعوا، وإذا مَسَّكم الخيرُ لا تمنعوا [١]؟ فسكتوا جميعاً، فقال لهم الشيخ: فما صلَّيتُمْ هذه الصلاةَ قَطُّ.

إن تَفَضَّل عليك بالتوبة فَتُبْتَ إليه فمِن فَضْلِهِ سبحانه وتعالى، وإنك تُذنبُ سبعين سنةً فتتوبُ إليه في نَفَسٍ واحد، فيمحو ما عملتَهُ في تلك المدة.

«التائبُ من الذنب كمن لا ذنب له» [٢] فالمؤمن كلّما ذكر ذَنْبَهُ حزن، وكلّما ذكر طاعتَه فرح.

قال لقمان الحكيم: المؤمن له قلبان، يرجو بأحدهما، ويخاف بالآخر: يرجو قَبولَ عملِه ويخاف ألا يُقبَل منه، ولو وُزِنَ خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعْتَدَلا [٣].

---

(١) كذا هما في المخطوط والمطبوع: (تَجزعوا ـ تمنعوا) والأصح: (تجزعون ـ تمنعون).

(٢) حديث شريف رواه ابن ماجة، ورمز السيوطي في «الجامع الصغير» لحُسْنِه كما رواه الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشُّعَب».

(٣) قوله: «لو وُزِن خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعتدلا) يروىٰ على أنه =

مَنْ أرادَ الجَمْعَ [١] على اللهِ فعليه بقيامِ أوامرِ الله.

إذا اطلعْتَ على زوجتِك بخيانةٍ فإنك تغضبُ عليها، فكذلك نفسُك قد خانتْكَ في عمرك، وأجمع العقلاء على أن الزوجةَ إذا خانتْ لا يَأْوِيها زوجُها بل يطلقُها، فَطَلِّقْ نفسَك.

سئل رسول الله ﷺ [٢]: ما أكثرُ ما يُدخلُ الناسَ الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق» فقيل له: فما أكثرُ ما يُدخلُ الناسَ النارَ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الأجوفان: الفم، والفَرْج» فاغْسِلْ قلبَك بالندم على ما فاتَك من الله عز وجل.

غَلِطُوا ـ واللهِ ـ في النوائحِ على زوجة أو زوج، أو والدٍ

= حديث نبوي، ولا أصلَ له. ولكنه مأثور عن بعض السلف ومعناه صحيح. وذُكر في موسوعة أطراف الحديث أن السيوطي أورده في «الدرر المنتثرة».

(١) الجَمْع على الله: رؤية الله وحده سبحانه.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في «المسند» [٢/ ٤٤٢] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أكثر ما يُدْخِلُ الناسَ النارَ: الأجْوَفان» قالوا: يا رسول الله، وما الأجوفان؟ قال: «الفَرْجُ، والفم». قال: «أتدرون أكثر ما يُدخِلُ الجنة: تقوىٰ الله وحُسْنُ الخُلُق».

أو ولد، بل كان من حقهم أن يُقيموا النوائحَ على فُقدانِهم تقوىٰ الله من قلوبهم.

تُقَهْقِهُ بالضحك كأنك قد جاوزْتَ الصراط وعَبَرْتَ النيران؟!.

إذا لم يكن بينك وبين الله وَرَعٌ يَحْجُزُكَ عن معاصي الله إذا خَلَوْتَ (وإلا) [1] فَضَعِ الترابَ على رأسك لقوله: «مَنْ لم يكنْ له وَرَعٌ يَحْجُزُه عن معاصي الله إذا خَلا، لم يَعْبَأ اللهُ بشيءٍ من عملِه» [2].

لا شيءَ يُخْجِلُكَ يوم القيامة مِثْلُ درهمٍ أنفقْتَهُ في حرام [3].

ليس الشأنُ في من يَرْفُقُ بك إذا وافقْتَه، بل الشأنُ في من يرفُقُ بك إذا خالفْتَه، ومما يُخاف عليك موالاتُ الذنوبِ ليستَدْرِجَكَ فيها، ويُمَكِّنَكَ منها. قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

---

(١) كذا في المخطوط والمطبوع: (وإلا) ولا يحتاجها الكلام.

(٢) أورده ابن عساكر في «تهذيب تاريخ دمشق» ٢/ ٦٥.

(٣) في المخطوط: (لا شيء ينفعك يوم القيامة مثل درهم أنفقته في حلال)

إنْ كانت معك عنايتُه ينفعْكَ القليل، وإن لم تكن لك عنايةٌ منه لم ينفعْك الكثير. لو كَشَفَ عنك الحجابَ لرأيتَ كلَّ شيء ناطقاً مسبِّحاً لله تعالىٰ، ولكن النقص فيك والحجاب منك.

ما أكثرَ احتراسَكَ [1] على بدنِكَ، وما أرخصَ دينَكَ عليك! لو قيل لك: إن هذا الطعامَ مسمومٌ لامتنعْتَ منه، ثم لو حُلِفَ لك بالطلاقِ أنه ليس بمسموم لتوقَّفْتَ عنه، بل لو غسلْتَ الوعاءَ الذي هو فيه مراراً لَنَفَرَتْ منه نفسُك، فَلِمَ تكن [2] كذلك في دينك؟!.

وكم لله عليك من أياديَ أكثرَ من أمّك! إنها إذا أخذتْكَ وأنت صغير تُلْبِسُك أحسنَ الملابس، فإن وسَّخْتَها تَخْلَعْ عليك ثياباً أُخَر في الوقت، وأنت تأتي إلى مملكة مزينة، ليس فيها موضعُ شِبْرٍ إلا ويَصْلُحُ للسجود عليه، تُتلف ثوبك وتوسخه بالمعصية، هكذا فعلُك، تَجَلَّى عليك المحاسِنُ فتجعلُ فيها ما يُكَدِّرها من المعصية!.

---

(١) في المخطوط: (احترازك).

(٢) كذا هي في المخطوط والمطبوع: (تكن) والصواب: (تكون).

ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبتهم، فلا تجعل صحبة المشايخ عِلَّةً في أَمْنِك، فمن اغترَّ بالله فقد عصاه؛ لأنك أَمِنْتَ عقوبتَه. كما يقول الجاهل: صَحِبْتُ سيدي فلاناً، ورأيت سيدي فلاناً، ويدّعون بدعاوى كلُّها كاذبةٌ باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدَهم صحبةُ المشايخ خوفاً ووَجَلاً، فقد صحبَ الصحابةُ [1] رسولَ الله ﷺ، وكانوا أكثرَ وَجَلاً ومخافة.

وربما كان الغنىٰ دفعاً والفقرُ جَمْعاً؛ لأن الفاقةَ [2] تُحْوِجُكَ أن تتضرعَ إلى الله، ولفاقَةٌ تجمعُك على اللهِ خيرٌ من غنىٰ يقطعُكَ عنه.

كما أُمِرْتَ أَنْ تُعْرِضَ عن العصيةِ أُمرتَ أن تُعرضَ عمّن عصىٰ وتدعوَ له في الغَيبة. والناسُ اليومَ على العكس، وما عسىٰ أن ينفعَك صومُك وصلاتُك وأنت تقعُ في عِرْض أخيك المسلم؟! قال ﷺ: «جَدِّدوا إيمانكم بقول: لا إله إلا الله» [3]. فدلَّ ذلك على أنه يُحَصَّلُ له غبارُ المعصية، ودَنَسُ

---

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع (صحبت المشايخ).

(٢) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٣) رواه أحمد والحاكم والنَّسائي والطبراني بسندٍ حسن عن أبي =

المخالفة، وما كلُّ غِشٍّ يُطَهِّرُه الماء، بل رُبَّ غِشٍّ لا يُطهِّره إلا النارُ، كالذهب إذا كان فيه الغِشُّ، فكذلك العصاةُ من هذه الأمةِ لا يَصْلُحون لدخولِ الجنة حتىٰ تُطهِّرَهُمُ النار.

لا يُحْسَدُ إلا عبدٌ قد لُفَّ في ملابسِ التقوىٰ، هذا هو العيشُ، وما أطيبَ عيشَ المحِبِّ مع الحبيبِ إذا لم يَطَّلِعْ عليه رقيبٌ! فإنْ أحبَّ أن يَطَّلِعَ عليه رقيبٌ فما صَدَقَ في حُبِّه، وكلُّ مَنْ أراد أن يَعلمَ أحدٌ بحاله فقد خُدِع.

ولا تَكُنْ كأربابِ الدنيا الذين طَلَّقَتْهُمُ الدنيا، بل كُنْ من الذين طلَّقوها وفارَقوها قَبْلَ افتِراقهم. فمِثالُك إذا آثَرْتَ الدنيا على الآخرة كَمَنْ له زوجتان: إحداهما عجوزٌ خائنة، والأخرى شابّةٌ وفيّة، فإذا آثرْتَ العجوزَ الخائنةَ على الشابةِ الوفية أفما تكون أحمقَ؟!

ربما قضىٰ عليك بالذَّنْبِ ليُخرجَ منك الكِبْرَ والعُجْبَ (فقد رُوِيَ: «رُبَّ ذَنْبٍ أدخلَ صاحبَهُ الجنة» [1]).

= هريرة رضي الله عنه. ولفظه: «جَدِّدُوا إيمانكم» قيل: يا رسول الله، كيف نُجدِّدُ إيمانَنا. قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله».

(١) ما بين قوسين في المطبوع، ولم أعثر على الأثر فيما رجعت إليه.

يُصَلّي الرجلُ ركعتينِ فيعتمدُ عليهما، ويَرْكُنُ إليهما، ويُعْجَبُ بهما، فهذه حسنةٌ أحاطتْ بها سيئاتٌ، وآخرُ يفعلُ المعصيةَ فَتُكْسِبُه الذِّلَّةَ والانكسارَ وتُديمُ المَسْكَنَةَ والافتقار، فهذه سيئةٌ أحاطتْ بها حسنات.

كفى بك جهلاً نظرُك إلى إساءة صغيرة من غيرك، وتعاميك عن كبيرِ إساءتِكَ.

لا تنتقدْ على الناسِ بظاهرِ الشرعِ ولا تُنْكِرْ عليهم؛ فلو خُوطبَ الناسُ اليوم بما كانت عليه الصَحابةُ والسلفُ الصالحُ لم يستطيعوا لأنّ أولئك حُجَجُ اللهِ على خَلْقه.

مثالُ الدنيا [1] عند أربابِ البصائرِ كَجيفةٍ أَدْخَلَتِ الكلابُ خراطيمَها [2] فيها، أرأيْتَ إذا غَمَسَ رجلٌ فَمَهُ في جيفة أفما تَعيبُ عليه؟ فإذا كان الحقُّ سبحانهُ وتعالىٰ قد جعل ميزاناً للبيعِ والشراء، أفما جَعَلَ [3] ميزاناً للحقائق؟!.

المتنجسُ القَدَمِ لا يَصْلُحُ للمُحاضرة، فكيف بِمَنْ تَنَجَّسَ فَمُه؟.

---

(١) كذا في المخطوط، وفي المطبوع: (الذنب).
(٢) في المخطوط: (فراطيسها) ومفردُها: فُرْطوسة وهي الأنف.
(٣) في المطبوع: (فما تجعل).

مَنْ خانَ هان، قيمةُ اليدِ خمسُمئة دينارٍ، فإذا خانَتْ قُطِعَتْ في رُبعِ دينار [1]. ومَنْ تجرّأَ على صغيرةٍ وَقَعَ في كبيرة.

اعرفْ كَمائِنَ نفسِك ولا تَثِقْ بها، إذا قالتْ لك: تزورُ فلاناً فربّما رُحْتَ إلى نارٍ تتأَجَّج ترمي نفسَك فيها عَمْداً فإنما هذا زمانُ اجتماع، قَلَّما تجلِسُ مجلساً إلا وتعصي اللهَ فيه، فكثيرٌ من السلف آثروا الجلوسَ في بيوتهم، وتركوا صلاةَ الجماعة، فإنْ طالبتْكَ النفسُ بالخروج فاشغَلْها بالقُعود في الدارِ بشيءٍ من الطاعة، فإنّ الغِيبةَ أشدُّ من ثلاثين زنيةً في الإسلام [2]، ولكن الكلاب لا تَرقدُ في دارِ عاليةِ

---

(١) قال أحدهم مشكِّكاً:
يدٌ بخمسِ مِئينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعَتْ في ربع دينارِ
فأُجيبَ:
عزُّ الأمانةِ أغلاها وأرخصها ... ذلُّ الخيانةِ فافهمْ حكمةَ الباري
وعندما سئل ابن الجوزي عن هذا قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

(٢) روى ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الغيبة» حديثاً ضعيفاً عن أنس ابن مالك، قال رسول الله ﷺ: «إن الدرهم يُصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ستٍّ وثلاثين زَنْيَةً يزنيها الرجل، =

الحِيطانِ [1] بل على المزابل.

من أرادَ أن ينظرَ إلى أمثلةِ القلوبِ فَلْينظر إلى الديار: فدارٌ عامرةٌ مأهولة [2]، ودارٌ قد خَرِبَتْ حتى بقيتْ مَبْوَلَةً للبَوّالين، وقلبٌ كالدكان العامرة، وقلبٌ كالدكان الخراب لا تَطْهُرْ [3] حتىٰ تُعاملَ اللهَ، فَتَصَدَّقْ كلَّ يوم ولو بربعِ دِرْهم أو بلُقْمة؛ حتىٰ يكتبَكَ اللهُ في ديوان المتصدقين، واتْلُ من القرآنِ كلَّ يوم ولو آيةً؛ حتى يكتُبَكَ اللهُ في ديوان التالين، وصلِّ في الليل ولو ركعتين؛ حتى يكتبك الله مع القائمين. وإياك تَغْلَطُ وتقول: مَنْ عنده قوتُ يوم بيوم كيف يتصدّق؟ قال الله تعالىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] فمثال المسكين إذا تَصَدَّقُ عليه كالمَطِيَّةِ تحملُ زادَكَ إلى الآخرة.

من أراد النهاياتِ فعليهِ بتصحيح البدايات.

= وإن أَرْبَىٰ الربا ـ أي أعظمه ـ عِرْضُ الرجل المسلم».

(١) في المطبوع: (لا ترقد على الحيطان).

(٢) كذا في المخطوط.

(٣) في المطبوع: (لا تظهر شمسك).

من صَدَقَ مع الله كفاه اللهُ مَضرة الأعداء، وحمل عنه مؤنة الأرداء [1] لأنه قد هانَ كلَّ الهوان من احتاج إلى الخَلْق.

أَتَظُنُّ أن الدواءَ حلوىٰ تأكلها [2]؟ إن لم تَهْجُمْ عليه هَجماً لم يُحَصَّلْ لك الشفاءُ، فاهْجُمْ على التوبة ولا تَغْلِبَنَّكَ حلاوةُ المعصية، وإذا رأيتَ نفسَك متطلِّعَةً إلى الشهوة فاهرُبْ إلى الله واستغِثْ به فإنه يُنجيك منها.

بدلَ ما تقول: أين أصحابُ الخُطْوة؟ أين الأولياء؟ أين الرجال؟ ـ قُلْ: أين البصيرة؟ هل يَصْلُحُ للمتلطِّخ بالعَذِرَة [3] أن يرى بنتَ السُّلطان؟!.

عن الشيخِ مَكينِ الدين الأسمر رضي الله عنه أنه قال: كنتُ بالإسكندرية فرأيت شمساً قد طَلَعَتْ مع الشمس، فتعجَّبْتُ من ذلك، فَدَنَوْتُ منه فإذا شابٌّ قد خَطَّ عِذَارُه [4]،

---

(١) في المخطوط: (كفاه الله مضرة الدعوىٰ وحمل عنه مؤنة الأدوا).

(٢) في المطبوع: (حلو تأكله).

(٣) العَذِرة: ما يخرج من الإنسان.

(٤) خط عِذاره: نَبَتَ شعرُ عذاره وهو جانبا اللحية.

قد غلب نورُه على نور الشمس، فسلّمتُ عليه فرد عليَّ السلام، فقلت له: من أين؟ فقال: صلَّيتُ الصبحَ في المسجد الأقصى ببيت المقدس، وأصلي الظهرَ عندكم، والعصرَ بمكة، والمغربَ بالمدينة! فقلت له: تكون ضيفي، قال: لا سبيلَ إلى ذلك، ثم ودَّعني وانصرف.

مَنْ أكرمَ مؤمناً فكأنّما أكرمَ اللهَ، ومن آذى مؤمناً فقد آذىٰ سيدَه ومولاه [1] فإياك أن تؤذي مؤمناً فإن نفسَك قد امتلأتْ بمساويها فيكفيها حِمْلُك.

وما مثالِك إلا كالبصلة إذا قُشرَتْ خرجت كلُّها قُشوراً.

إذا أردتَ تنظيفَ الماء قطعْتَ عنه أسبابَه الخبيثة، فمِثالُ الجوارح كالسواقي تجري إلىٰ القلب، فإياك أن تسقيَ قلبَك بالرديء، كالغِيبة والنميمة والكلام السيىء، والنظرِ إلىٰ ما لا يحل، وغير ذلك؛ فإن القلبَ لا يَحْجُبُه ما خرج منه، وإنما يَحجُبُه ما أقام فيه، فاستنارةُ القلب: بأكل الحلال والذكر وتلاوة القرآنِ، وصونِهِ عن النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات. فلا تُطلِقْ صائدَ بَصَرِك إلا لمزيدِ

(١) روىٰ البخاري في «صحيحه» عن النبي ﷺ: قال إن الله عز وجل قال: «من عادىٰ لي وليّاً فقد آذَنْتُه بالحرب».

علمٍ أو حكمة. عِوَضَ ما تقول: هذه المرآة صَدِئتْ قل: عيني بها رَمَد.

يكونُ بك حبُّ الرياسة والجاه وغيرِهما، وتقول: الشيخُ ما يَجْذِبُ قلوبَنا، قل: العائقُ مني.

لو استعدَدْتَ في أول يومٍ لما احتجْتَ إلى حضور مجلسٍ ثان، وإنما احتجْتَ إلى التكرار لقوة صَدأ قلبِك، حتىٰ تكون لكلِّ جلسة صَقْلَة.

عليك بالحَوالةِ [1] على مولاك، واتركْ مَنْ لا يستطيع أن ينفعَ غيره.

اقطع إياسك من الخلق، ووجِّهْ رجاءَك إلى المَلِكِ الحق، وانظرْ: ماذا عملُك؟ وماذا عمل معك من أول نَشْأَتِك؟ ما صنع معك إلا جوداً وإحساناً، وانظرْ ماذا صنعْتَ معه فلا ترىٰ إلا جَفاءً وعِصياناً.

ما أكثر موالاتَكَ للمخلوقين، وما أقلَّ موالاتَك لله [2]!.

(١) أي: حَوِّلْ أمورك كلها إلى الله واطلبها منه وحده.
(٢) في المخطوط: (لمولاك).

جوارحك غَنَمُك، وقلبُك هو الراعي [1]، واللهُ هو المالك، فإنْ رعيتَها في المرعىٰ الخَصيب حتىٰ أرضيتَ المالك، استوجبْتَ الرضىٰ، وإنْ رعيتَها في المرعىٰ الوخيم حتىٰ أُعْجِفَ [2] أكثرُها، ثم جاء الذئبُ فأخذ بعضها ـ استوجَبْتَ العقوبةَ من المالك، فإن شاء انتقم منك، وإن شاء عفا عنك. فجوارحُكَ إما أبوابٌ إلى الجنة، وإما أبواب إلىٰ النار [3]. فإن صرفتَها فيما يَرْضاه كنت ساعياً في طريق الجنة، وإلا كنتَ ساعياً في طريقِ النار. فهذه موازينُ الحكمة فَزِنْ بها عقلك كما تَزِنُ بها الأشياءَ المحسوسات، فإن أردتَ أن تعرف كيف تمرُّ على الصراط فانظرْ حالَكَ في الإسراع إلى المساجد، فيكون جزاءَ الذي يأتي المسجد قبل الأذان أن يمر على الصراط كالبرق الخاطف والذي يأتي في أول الوقت يمرُّ عليه كأجاويدِ الخيل. وها هنا صراطُ الاستقامة لا يُشْهَدُ بالأبصار، ولكن تَشْهَدُه بالقلوب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

(١) في المطبوع: (أنت الراعي).
(٢) أُعْجِفَ: صار هزيلاً ونحيلاً.
(٣) في المطبوع: (إما ثواب إلى الجنة، وإما عقابك بالنار).

ولم يُشِرْ [1] إلا إلى موجود، فَمَنْ أضاءت له الطريق يتبعها، ومن كانت طريقُه مظلمةً لم يَشْهَدْها فيبقىٰ متحيراً، فإن كنتَ قد أطلقت سمعَك وبصرَك ولسانَك بُرْهَةً من عمرك فَقَيِّدِ الآن ما أطلَقْتَ، قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراءُ المؤمنين الجنةَ قبل الأغنياء بخمسمئة عام» [2]. وذلك لأنهم سبقوا في الدنيا بالعبادات، وأنت تتركُ الجماعةَ وتصلّي وحدَك، وإذا صلَّيْتَها نَقَرْتَها نَقْر الدّيك، وهل يُهدىٰ للملوك إلا ما حَسُنَ وانْتُخِب؟ فما سبقَ الفقراءُ إلى الجنةِ إلا لأنهم سَبَقُوا إلى خِدْمَةِ المولىٰ في الدنيا، والمرادُ بالفقراء: الصُّبُر، الذين صبروا على مُرِّ الفاقة، حتىٰ إنَّ أحدَهم لَيَفرَحُ بالشدّةِ كما تفرح أنت بالرَّخاء، فَدُخولُ الفقراءِ الجنة قبل الأغنياء يَدُلُّ على صَبْرِهم على الفاقة [3].

كفى بك جهلاً أن تَتردَّد إلى المخلوق، وتتركَ باب

(١) أي: بقوله (هذا) في الآية الكريمة.
(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: حسن صحيح، ولفظه عنده: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمس مئة عام».
(٣) في المطبوع: (فدخول الفقراء الجنة يدل على تحضيضهم على الفاقة).

الخالق! فقد ارتكبْتَ المعاصي من كلّ جانب، أفلا تكون محزوناً على نفسك؟! والعَجَبُ كلُّ العَجبِ من عبدٍ يُقبِلُ على صُحْبَةِ نفْسِه ولا يأتيه الشرُّ إلا منها، ويتركُ صحبةَ الله ولا يأتيه الخيرُ إلا منه.

فإنْ قيل: كيف الصحبةُ لله؟ فاعلمْ أن صحبةَ كلِّ شيءٍ على حَسَبِه: فصحبةُ الله تعالىٰ بامتثالِ أوامرِه واجتناب نواهيه، وصحبةُ المَلَكَيْنِ بأن يُملِيَهما الحسناتِ، وصحبةُ الكتاب والسنةِ أن يعمل بهما، وصُحْبَتُكَ السماءَ بالتفكُّر فيها، وصُحْبَتُكَ الأرضَ بالاعتبار لما فيها.

وليس من لازِم الصحبةِ وجودُ الرُّتبة [1]، فالمعنىٰ في صحبة الله صحبةُ أياديه [2] ونِعَمه: فمن صَحِبَ النِّعَمَ بالشكر، وصحب البلايا بالصبر، وصحبَ الأوامرَ بالامتثال، والنواهي بالانزجار، والطاعةَ بالإخلاص ـ فقد صحبَ الله تعالىٰ، فإذا تَمكَّنَتِ الصحبةُ صارت خِلَّة [3].

إياك أن تقول: ذهبَ الخيرُ وانطوىٰ بِساطُه؛ فلسنا نريد

(١) أي: كَونُ الصاحب بمرتبة المصاحَب.
(٢) الأيادي: جمع أيْدٍ فهي جمع الجمع ومعناها: النِّعم والآلاء.
(٣) الخِلّة: المودة والصداقة.

من يُقْنِطُ الناسَ من رحمة الله ويُؤيِسُهم منه تعالىٰ، ففي زَبور داود عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام: أرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أَعْرَضَ عني. فَرُبَّ مطيعٍ هَلَكَ بالعُجْبِ، ورُبَّ مذنبٍ غُفِرَ له بسبب كَسْرِ قلبه.

عن الشيخ مكين الدين الأسمر أنه قال: رأيتُ بالإسكندرية عبداً مع سيده وعليهما لواءٌ قد أَطْبَقَ ما بين السماءِ والأرض، فقلت: يا تُرىٰ هذا اللواءُ للسيد أم للعبد، فتبعْتُهما حتىٰ اشترى له سيدُه حاحةً وفارقَه، فلما ذهب العبدُ ذهب اللواءُ معه، فعلمتُ أنه وليٌّ من أولياء الله تعالىٰ، فجئتُ إلى سيده وقلتُ له: أتبيعُني هذا العبد؟ فقال: لماذا؟ فما زال بي حتىٰ ذكرتُ له أمرَه، فقال لي: يا سيدي، الذي تطلبُه أنت: أنا أولىٰ به، وأَعْتقَه وكان ولياً كبيراً.

فمنهم مَنْ يعرف الأولياءَ بالشَّمِّ من غير وجودِ طِيْب، ومنهم مَنْ يعرفهم بالذوقِ، إذا رأى ولياً ذاق طَعْمَ الحلاوة في فمه، وإذا رأىٰ صاحبَ قطيعةٍ ذاق طعمِ المرارة في فمه.

مَنْ لم يترك المحرماتِ لم ينفعْه القيامُ بالواجبات، مَنْ لم يَحْتَمِ لم ينفعْه الدواء.

ما أَقَلَّ بركةَ مالٍ وقعتْ فيه أيدي الناهبين! فهذا ـ وَاللهِ ـ عُمُرُ الغافلين منهوب.

مثال الدنيا كعجوزٍ جَذْماءَ بَرْصاء [1]، سُتِرَتْ بثوبٍ حرير، فالمؤمن نافرٌ ومُنَفِّرٌ عنها لانكشافها له، وما لَبِسَ أحدٌ لباساً أَنْتَنَ من لباس الدعوىٰ بأن يقول في المخاصمة: أنت مثلي؟ وأنت يصلح لك أن تكلمني؟ ومن أنت حتىٰ أُكَلِّمَك! فأولُ مَنْ هلك بذلك إبليس، فإياك وهذا ولو كان أَعْرَجَ أَجْذَمَ أَجْرَب فلا تَحْقِرْه؛ لِحُرْمَةِ لا إله إلا الله في قلبه، وحَسِّنْ ظنَّك بكل أحد تُفلِحْ، أتحسبُ أن حُسْنَ الخُلُقِ هو أن يكون الإنسان حَسَنَ الملتقىٰ، ومن أكرم الناسِ وضيع حقوقَ الله تعالىٰ؟ ليس هذا بخُلُقٍ حَسَن، بل لا يكون العبدُ [2] ممدوحاً بِحُسْنِ الخُلُق حتىٰ يكون قائماً بحقوق الله تعالىٰ، وقائماً بأحكامه، مستسلماً لأوامر الله، مجتنباً لنواهيه، فَمَنْ منع نفسه معاصيَ الله، وأدىٰ حقوقَ الله فقد حَسُنَ خُلُقُه.

ما سَلَّطَ اللهُ عليك ألسنةَ العباد إلا لِترجعَ إليه. ألا ترىٰ:

(١) جَذماء بَرْصاء: مصابة بِداءَي الجُذام والبَرَص.
(٢) في المطبوع: (لا تكون).

لاتزال لك قيمةٌ عند الله حتىٰ تعصي، فإذا عصَيتَ فلا قيمة لك. التقوىٰ هي تركُ معصيةِ الله حيث لا يراك أحد.

كان النبي ﷺ إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي جعله عَذْباً فُراتاً برحمته، ولم يجعلْهُ مِلْحاً أُجَاجاً بذنوبنا» [1]. وهو ﷺ مقدَّسٌ عن الذنوب، ولكنْ تواضعاً منه وتعليماً، وكان يمكنه أن يقول: «بذنوبكم»، وما أكل ﷺ ولا شرب إلا ليعلمنا الأدب، وإلا فكان عليه الصلاة والسلام يُطْعَمُ ويُسقىٰ، فالعارف يُنَكِّسُ رأسَه إذا شرب، وربما تَقْطُرُ عيناه بالدموع ويقول: هذا تودُّدٌ من الله تعالىٰ.

كان بعضهمُ لا يخرج لصلاةِ الجماعة لمَا يَعْرِضُ له في طريقه، منهم: مالكُ بن أنس رضي الله عنه؛ لأن الجماعةَ رِبْحٌ، والربحُ لا يُحسَبُ إلا بعد الإحاطة على رأس المال.

لا تحسَبِ السباعَ في البرية بل السباعُ في الأسواق والطرق، وهي التي تَنْهَشُ القلوبَ نَهْشاً.

مثالُ مَنْ يُكثرُ الذنوبَ والاستغفار كمثلِ من يُكثر شُرْبَ السُّمِّ، ويُكثر استعمالَ التِّرْياق، فيقال له: قد لا تصل إلى

(١) أخرجه الطبراني، والهندي في «كنز العمال» برقم (١٨٢٢٦).

التِّرْياقِ مرة، فيهجم عليك الموتُ قبل الوصول إليه.

مَنْ مَرِضَ قلبُه مُنِعَ أن يَلْبَسَ لباس التقوىٰ، فلو صحَّ قلبُكَ من مرض الهوىٰ والشهوة تَحمَّلْتَ أثقالَ التقوىٰ، فمن لم يجد حلاوةَ الطاعة دُلَّ على مرضِ قلبِه من الشهوة، وقد سمىٰ اللهُ تعالىٰ الشهوةَ مَرَضاً بقوله تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ولك في عِلاجه طريقان: استعمالُ ما هو لك نافع، وهو الطاعة، واجتناب ما هو لك مُضِرٌّ، وهو المعصية. فإن فعلتَ ذنباً و أَعْقَبْتَهُ بالتوبة والندم والانكسار والإنابة كان ذلك سبب وصلتك به، وإن فعلت طاعةً وأَعْقبتَها بالعُجْبِ والكِبْرِ كان ذلك سببَ القطيعة عنه.

عجباً لك كيف تطلبُ صلاحَ قلبِك، وجوارحُك تفعل ما شاءت [1] من المحرمات كالنظرِ والغِيْبَةِ والنميمة وغير ذلك؟ فمثالك كمن يتداوىٰ بالسُّمِّ، أو كمن أراد تنظيفَ ثوبه بالسواد، فعليك بالخَلوة والعُزْلة، فمن كانت العُزْلةُ دأبَه كان العزُّ له، فمن صدقت عُزْلَتُه ظَفِر بمواهبِ الحق له بالمِنَن، وعلامتُها: كشفُ الغطاء وإحياءُ القلب وتحقيقُ المحبة، فعليك بحسن العمل لا بكثرته: فمثالُ كثرةِ العمل مع عدمِ

(١) في المطبوع: (وجوارحك وأنت تفعل ما شئت).

الحُسْنِ فيه كالثياب الكثيرة الوضيعةِ الثمن، ومثال قلةِ العمل مع حُسْنه كالثياب القليلة الرفيعةِ الثمن، كالياقوتة: صغيرٌ جِرْمُها، كثيرٌ ثمنُها. فمن أشغل قلبَهُ بالله، وعالجه مما يطرأ عليه من الهوىٰ كان أفضل ممّن يُكثرُ من الصلاة والصوم.

مثال من صلىٰ الصلاةَ بغير حضور قلبٍ كمن أهدىٰ للملك مئةَ صُندوقٍ فارغةً فيستحقُّ العقوبة من الملك، ومن صلاّها بحضور القلبِ كان كمن أهدىٰ له ياقوتةً تساوي ألفَ دينار، فإن الملك يَذْكرُه عليها دائماً.

إذا دخلْتَ في الصلاة فإنك تناجي اللهَ سبحانه وتعالىٰ، وتُكلِّم رسولَه ﷺ لأنك تقول: «السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته» ولا يقال: أيها الرجل [1]، عند العرب إلا لمن يكون حاضراً.

ركعتان بالليل خيرٌ من ألف بالنهار، وأنت لا تصلي فيه ركعتين إلا لتجدَ ذلك في ميزانك، وهل يُشترىٰ العبدُ [2] إلا للخدمة؟ هل رأيت عبداً يُشترىٰ ليأكل وينام؟ وما أنت إلا

(١) أي: أنت تقول: (أيها النبي) فكأنه عليه الصلاة والسلام حاضر معك، وأنت تكلمه.

(٢) في المطبوع: (تشتري عبداً).

عبدٌ اشتُرِيْتَ. قال الله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

مَنْ لم يُلْزِمْ نفسَه لزمتْهُ، ومن لم يطالبها طالبتْهُ، فلو جعلتَ عليها الأثقالَ بالطاعة لما طالبتْكَ بالمعصية، ولمَا كانت تتفرغ لها. هل رأيتَ الصالحين والعُبّاد يتفرجون في الأعياد؟ من شَغَلَ نفسَه بالمباحات والفرح شُغِلَ عن قيام الليل، فيقال له: شَغَلتَ نفسَك عنا فشغلْناك عن عبادتنا.

ركعتانِ في جوف الليل أثقلُ عليك من جبل أحد، فأعضاءٌ يَبِستْ عن الطاعة لا تَصْلُح إلا للقطع، فإن الشجرة إذا يبستْ لا تَصلحُ إلا للنار.

من أحبَّ الدنيا بقلبه كان كمن بنىٰ بناءً حَسَناً فوقَهُ مِرْحاضٌ فَرَشَحَ عليه، فلا يزال كذلك حتى يُرىٰ ظاهرُه كباطنه، ومنهم من يُنَقّيه فلا يزال قلبُه أبيضَ، وتنقيتُه بالتوبة والأذكار، والندمِ والاستغفار. كذلك أنت في حضرة الله مُلَوَّثٌ بمعصيتِك، تأكلُ المحرَّم وتنظر إلىٰ المحرّم، فمن يفعلِ المخالفاتِ والشهواتِ يُظْلِمْ قلبُه، فإنْ لم تتبْ في حال الصحة ربما ابتلاك بالأمراض والمِحَن، حتى تخرج نقياً من

الذنوب كالثوب إذا غُسِل فاصْقُل مرآة قلبك بالخَلوة والذكْر حتىٰ تلقىٰ الله تعالىٰ، ولْيَكُنْ ذِكْراً واحداً[١] فتَنْبُعَ لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفرَ بئراً فيحفرَ ذراعاً هنا وذراعاً هنا فلا ينبع له ماءٌ أبداً، بل احفِرْ في مكان واحد فيَنْبُعَ لك الماء.

يا عبدَ الله، دينُك هو رأسُ مالِك، فإنْ ضيَّعْتَهُ[٢] ضيعْتَ رأسَ مالِك، فاشغَلْ لسانَك بذكره، وقلبَك بمحبته، وجَوارحَك بخدمته[٣]، واحرُثْ وجودَك بالمحارث حتىٰ يجيءَ البذرُ فَيَنْبُتَ، ومن فعل بقلبه كما يفعلُ الفلاح بأرضه أنارَ قلبُه.

فمثالُك مثالُ رجلين اشتريا أرضاً قياساً واحداً، فأخذها الواحدُ فنَقَّاها من الشوك والحشيش، وأجرىٰ بها الماء، وبَذَرَها فنبتتْ، وجنىٰ منها وانتفع بها، فهذا كمن نشأ في الطاعة، قد أشرقَتْ أنوارُ قلبه. وأما الآخرُ فإنه أهملها حتىٰ

---

(١) في المطبوع: (وليكن قلبك ذاكراً).
(٢) في المطبوع بحذف (ضيعته).
(٣) في المخطوط: (بالمخاوف).

نبت فيها الشوكُ والحشيش، وبقيتْ مأوىٰ للأفاعي والحيات، فهذا قد أَظلمَ قلبُه بالمعاصي.

إذا حضـرْتَ المجلـسَ وخـرجْـتَ إلـى المخـالفـات والغَفَلات، فإياكَ أن تقول: ماذا يُفيد حضوري؟ بل احضُرْ يكونُ بك مرضٌ أربعين سنة، أفتريد أن يَذهبَ عنك في ساعة واحدة، أو في يوم واحد؟ فمثاله كَرَمْلٍ رميَ في موضع أربعين عاماً، أفتريد أن يزول في ساعة واحدة أو في يوم واحد؟ فمن فعل المعاصي وتقلب في الحرام لو انغمس في سبعة أبحر لم يَطْهُرْ [1]؛ حتى يَعْقِدَ مع الله عَقْدَ [2] التوبة.

للظاهر جنابةٌ تمنعُك من دخول بيته، وتلاوةِ كتابه، وللباطن جنابةٌ تمنعك من دخول حضرته، وفَهْمِ كلامِه، وهي الغفلة. فإذا طَلَبَتِ النفسُ الشهواتِ فالْجُمْها بلجام الشرع، فمثالُها كالدابة إذا مالتْ لِزَرْع غيرك، فَغُضَّ [3] الأبصارَ عن ميلها إلى المستحسنات، والقلوبَ عن ميلها إلى الشهوات، وليكنْ قلبُك معموراً على الدوام، والحقُّ سبحانه

(١) في المطبوع: (تطهره).
(٢) في المطبوع: (عُقْدَة).
(٣) في المطبوع: (فتغمض) وفي نسخة: (فغمض).

وتعالىٰ اختـارَ لحضرته مَنْ يَصْـلُحُ لها، ومَنْ لا يَصـلح رمـاه للكائنات، فمثالهم كالعبيد يُعْرَضون على المِلك، فمن أخذه الملكُ عَزّ ومن لا يَصلح بقي للرعية.

ما أتيت لموطن حكمة أو معصيةٍ إلا وفي عُنُقِك سلسلةٌ نـورانيـة أو ظُلْمـانيـة، فـإنْ كنـت لا تَشْهَـدُهـا أنـت فغَيـرُك يَشهدُها، ألا ترى أن الشمس يَشهدُها الناس أجمعون إلا من كان أعمىٰ؟.

ما فائدةُ العلم إلا بالعملِ به، مثاله كمَلِكٍ كتب إلى نائبه بثغرٍ كتاباً، فما فائدةُ الكتاب؟ أن تقرأَه فقط؟ إنما فائدتُه العملُ به.

مثال من يشتغلُ بالعلم وليس له بصيرةٌ كمثل مئةِ ألفِ أعمىٰ سلكوا طريقاً متحيِّرين فيها، فلو كان فيهم واحدٌ بعين واحدة لتبعَهُ الناسُ أجمعون وتركوا مئةَ ألف أعمىٰ.

ومثالُ العالم [1] مع تركِ العمل كالشمعةِ تُضيء للناس بإحراقِ نفسِها.

علمٌ فيه الغفلةُ عن اللهِ: الجهلُ خيرٌ منه، فمن أثمرتْ

(١) في المطبوع: (العلم).

جوارحُه فقد أمطرَ قلبُهُ لسانَهُ [1] بالذكر، وعينَيه بالغَمْضِ، وأُذُنَيه بالاستماع إلى العلم، ويديه ورِجْلَيه بالسعي إلى الخيرات.

مَنْ أَكْثَرَ من مجالسة أهلِ هذا الزمانِ فقد تَعرَّض لمعصية الله تعالىٰ، مثالُه كَمَنْ جعل الحطبَ اليابسَ في النار، ويريد ألاّ تتقدَ، فقد أراد مُحالاً؛ لأنه قد وَرَدَ [2].

خُصَّ بالبلاءِ مَنْ عَرَفتْهُ الناسُ، وعاشَ فيهم مَنْ لم يَعْرِفْهم [3]، فربما جالسْتَ غيرَ مُتَّقٍ وكنت متَّقياً فَجَرَّكَ إلى الغِيبة، وقَهَرَكَ في نفسِك.

ما خرَّبَ القلوبَ إلا قلةُ الخوف.

القلبُ الحَسَنُ هو الذي لا يَشْغَلُه عن الله تعالىٰ حَسَنٌ. إن أردتَ شفاءَ قلبِك فاخرجْ إلى صحراء التوبة، وحَوِّل حالَكَ من الغِيبة إلى الحضور، والبَسْ ثيابَ الذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ، فإنّ القلب يشفىٰ، ولكنك تحشو بطنَك وتتفاخرُ بالسِّمَن،

(١) في المطبوع: (قلبه ولسانه).
(٢) أي: لأن الحطب قد وَرَدَ النارَ وصار فيها.
(٣) في المطبوع: (من عرف الناس وعاش فيهم ليس كمن لم يعرفهم).

فمثالك كالخروف الذي يُسَمَّنُ للذبح، ألا فقد ذبحْتَ نفسَك وأنت لا تشعر!.

(لا يَفُتْكَ مجلسُ الحكمة ولو كنتَ على معصية، فلا تقل: ما الفائدةُ في سماع المجلس، ولا أقدِرُ على ترك المعصية؟ بل على الرامي أن يرميَ فإن لم يأخذِ اليومَ يأخذْ غداً) [1]. ولو كنتَ كَيِّساً [2] فَطِناً لكانت حقوقُ الله عندك أحظىٰ من حظوظ نفسك.

ما يَطَّلعُ على الأسرار إلا أمين، وأنت تُعطي نفسَك حظَّها من المآكل والمشارب حتىٰ تملأَ بيتَ الخلاء، أو يكفيكَ حبُّ الدنيا؟ ومن أحبَّ الدنيا فقد خان، ومن خان فهل يُطْلِعُه الملِكُ على أسراره! (فاستعمل الأذكار وعليه إنزال الأنوار) [3].

(ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثلُ خَلوةٍ يَدخلُ بها مَيدانَ فكرة. كيف يُشرقُ قلبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في مِرْآتِه، أم كيف يرحلُ إلى الله وهو منكبٌّ على شهواته، أم كيف يطمعُ أن

(١) ما بين قوسين ليس في المخطوط.
(٢) الكيِّس: العاقل.
(٣) ما بين قوسين ليس في المطبوع.

يدخل حضرةَ الله وهو لم يَطّهّر من جنابةِ غَفَلاتِه، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يَتُبْ من هَفَواته؟.

أَصْلُ كلِّ معصيةٍ وغفلة وسهو: الرضى عن النفس، وأَصْلُ كلِّ طاعةٍ ويَقَظة وعِفَّة: عدمُ الرضىٰ عنها.

لا ترحل مِنْ كون إلى كون فتكونَ كالحِمار في الرحىٰ، يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارْحَلْ من الأكوان إلى المُكَوِّن: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

إنما الأنوارُ مطايا القلوبِ والأسرار. والنورُ جُنْدُ القلبِ كما أن الظلمةَ جندُ النفس، فإذا أراد الله أن ينصرَ عبدَه أَمَدَّه بجنود الأنوار، وقطع عنه مَدَدَ الظُلَمِ والأَغْيار [1].

النورُ له الكشف، والبصيرة لها الحُكم، والقلبُ له الإقبالُ والإدبار.

الأكوان ظاهرُها غِرَّة[2]، وباطنها عِبْرَة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غِرّتها، والقلب ينظر إلى باطنِ عِبْرَتِها.

---

(١) الأغيار: كل ما يشغل عن الله تعالى أو كل شيء سواه.

(٢) أي يغترّ بها الإنسان.

متى أَوْحَشَكَ اللهُ من خَلْقِه فاعلم أنه يريد أن يفتحَ لك بابَ الأُنْس به.

الصلاةُ محلُّ المناجاة، ومعدِنُ المصافاة، تَتَّسِعُ فيها ميادينُ الأسرار، وتُشرق فيها شَوارقُ الأنوار، عَلِمَ وجودَ الضَّعفِ منك فقَلّلَ أعدادَها، وعلمَ احتياجَك إلى فضله فكَثّر أمدادَها.

الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذامّاً لنفسك لما تعلمُ منها؛ فإن أجهلَ الناس مَنْ ترك يقينَ ما عنده لظنِّ ما عند الناس.

غَيِّبْ نَظَرَ الخلقِ إليك بنظرِ الله إليك، وغِبْ عن إقبالهم عليك بشهودِ إقبالِه عليك.

علم أن العبادَ يتشوّفون إلى ظهور سرِّ العناية، فقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وعلم أنه لو خَلاّهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] إن أردت ورود المواهب عليك فَصَحِّح الفقرَ والفاقةَ لديك: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

أنوارٌ أُذِنَ لها في الدخول، وأنوارٌ أُذن لها في الوصول.

ربما وردتْ عليك الأنوارُ فوجدَتْ القلبَ محشوّاً بصورِ الآثار، فارتحلتْ من حيثْ نزلتْ.

فَرِّغْ قلبك من الأغيارِ يَمْلأْه بالمعارفِ والأسرار.

المؤمنُ يشغَلُهُ الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغلُه حقوقُ الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً.

جعلك اللهُ في العالم الأوسط بين مُلْكِهِ ومَلَكوتِه؛ ليُعْلِمَكَ جلالةَ قدرِكَ بين مخلوقاته، وأنك جوهرةٌ انطوتْ عليها أصدافُ مُكَوِّناته.

أنت مع الأكوانِ مالم تَشْهَدِ المكوِّن، فإذا شهدْتَهُ كانت الأكوانُ معك.

العاقلُ بما هو أبقى أفرحُ منه بما هو يفنىٰ، قد أشرق نورُه وظهرتْ تباشيرُه، فصدَّ عن هذه الدار مولِّياً، وأعرض عنها مُغْضِياً، فلم يتخذْها موطناً، ولا جعلها سكناً، بل أنْهضَ الهمةَ فيها إلى الله تعالىٰ، وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه، فما زالت مطيةُ عَزْمِهِ لا يَقِرُّ قَرارُها، دائماً

تَسايُرُها إلى أن أناختْ بحضرةِ القُدْسِ [١]، وبِساطِ الأُنْس، مَحَلِّ المفاتحة والمواجهة والمجالسة، والمحادثة والمشاهدة والملاطفة، وصارت الحضرةُ مُعَشَّشَ [٢] قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يستوطنون، فإن نَزَلوا إلى سماء الحقوق، وأرضِ الحظوظ فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلم يَنْزِلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظِ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك كلِّه بالله، ولله، ومِنَ الله، وإلى الله) [٣]، فإياك يا أخي أن تُصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة؛ لئلاّ تَسْقُطَ من عين الله، وتستوجِبَ المَقْتَ [٤] من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق، وإخلاصِ الوفاء، ومراقبةِ الأنفاس مع الله، قد سَلَّموا قِيادَهم إليه، وأَلْقَوا أنفسَهم سِلْماً بين يديه، وتركوا الانتصارَ لأنفسهم حياءً من ربهم، فكانَ هو المحاربَ عنهم لمن حاربهم، والغالبَ لمن غالبهم. ولقد

---

(١) القُدْس: الطُّهْر، ومنه قيل للجنة: حظيرة القدس.

(٢) معشَّش قلوبهم: مكان تعشيشها.

(٣) من قوله: (ما نفع القلب شيء..) إلىٰ هنا ليس في المخطوط.

(٤) المَقْت: البُغْض.

ابتلى اللهُ هذه الطائفةَ بالخَلْق خصوصاً، ولا سيما أهلُ العلم، فَقَلَّ أن تجدَ منهم من شَرَحَ اللهُ صدرَه للتصديق بوليٍّ مُعَيَّن بل يقول لك: نعم إن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يُذكَرُ له أحدٌ إلا وأخذ يدفع خصوصيةَ الله فيه، طَلْقَ اللسانِ بالاحتجاج، عارياً من التصديق، فاحذرْ مَنْ هذا وَصْفُه، وفِرَّ منه فِرارَك من الأسد.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: ليس الفقيه من فَقَأَ الحجابُ عَيْنَيْ قلبه، وإنما الفقيه من فهم سِرَّ الإيجاد، وأنه ما أوجده إلا لطاعته ولا خَلَقَهُ إلا لخدمته، فإذا فهم هذا كان هذا الفقه منه سبباً لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة، وإهمالِه لحظوظ نفسِه واشتغالِه بحقوق سيده، مفكراً في المعاد، قائماً بالاستعداد.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ»[1]. والمؤمن القوي هو

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجة. ولفظ مسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير. احرِصْ على ما يَنْفَعُك، واستعِنْ بالله ولا تَعْجِزَنّ، وإن أصابك شيء فلا تَقُل: لو أني فعلْتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر=

الذي أشرق في قلبه نورُ اليقين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢] سبقوا إلى الله فَخَلَّصوا[1] قلوبَهم مما سواه، فلم تُعِقْهم العوائق، ولم تَشْغَلْهم عن الله العلائق[2]، فسبقوا إلى الله إذ لا مانعَ لهم، وإنما منعَ العبادَ من السبق جواذبُ التعلق بغير الله، فكلما هَمَّتْ قلوبُهم أن ترحلَ إلى الله سبحانه وتعالى جَذَبَها ذلك التعلقُ الذي به تَعَلَّقَتْ، فَكَرَّتْ راجعةً إليه ومقبلةً عليه، فالحضرةُ مُحَرَّمةٌ على مَنْ هذا وَصْفُه، وممنوعةٌ على من هذا نَعْتُه، وافهم ها هنا قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، والقلب السليم هو الذي لا تَعَلُّقَ له بشيء غير الله تعالىٰ، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] يُفْهِمُ منه أنه لا يصلُحُ مجيئُك إلى الله ولا الوصولُ إليه إلا إذا كنتَ فَرْداً مما سواه، وقولُه تعالى:

= الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

(١) في المطبوع: (فخلص).

(٢) في المطبوع: (الخلائق).

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾، يُفهم منه أنه لا يَأْويك الله إلا إذا صح يُتْمُك مما سواه. وقوله ﷺ: «إن اللهَ وِتْرٌ يحبُّ الوتر»[1] أي يحب القلب الذي لا يُشْفَعُ بمثنيات الآثار، فكانت هذه القلوبُ لله وبالله، فهم أهلُ الحضرة المخاطبون بِعَيْنِ المِنّة، فكيف يُمكنهم أن يكونوا لِسِواه مستندين، وهم لوجود الأَحَدِيّة مشاهِدون؟.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: قويَ عليَّ الشهودُ فسألته أن يستر عليَّ ذلك، فقيل لي: لو سألتَهُ بما سأله موسىٰ كليمُه، وعيسىٰ رُوحُه، ومحمدٌ حبيبُه ﷺ وصَفِيُّه لم يفعل ذلك ولكن سَلْهُ أن يُقَوِّيَكَ، فسألتُهُ فقوّاني.

فأهلُ الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا[2] بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمهم وصرف عنهم ما أَغَمَّهم، واشتغلوا بما أمرهم عمّا ضَمِنَ لهم، علماً منهم بأنه لا يَكِلُهم إلى غيرِه، ولا يمنعُهم من فضله، فدخلوا في

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة والترمذي، وقال: حديث حسن. وهو بتمامه: «إن الله وِترٌ يحب الوتر؛ فأَوْتِروا يا أهل القرآن».

(٢) في المخطوط: (فكان).

الراحة، ووقفوا في جنة التسليم، ولَذاذَةِ التفويض، فرفع اللهُ بذلك مِقدارهم، وكَمَّلَ أنوارهم.

واعلم ـ رحمك اللهُ تعالىٰ ـ أن العلمَ حيثما تكرر في الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة إنما المراد به العلمُ النافع الذي تُقارِنُهُ الخَشيةُ، وتَكْتَنِفُه المخافة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فبَيَّنَ أن العلم تُلازمه الخشية، فالعلماء هم أهلُ الخشية، وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقولُه تعالىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وقوله ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء»[1]، إنما المراد بالعلم في هذه المواطن كلِّها: العلمُ النافع، القاهرُ للهوىٰ، القامعُ للنفس،

(١) رواه أبو داود والترمذي وهو بتمامه: مَنْ سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سَهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما صنع، وإن العالِمَ لَيَستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

وذلك مُتَعيِّنٌ بالضرورة؛ لأنّ كلام الله تعالىٰ وكلام رسول الله ﷺ أَجَلُّ من أنْ يُحْمَلَ على غير هذا، والعلمُ النافع هو الذي يُستعان به على الطاعة، ويُلزِمُ الخشيةَ من الله تعالىٰ، والوقوفَ على حدود الله تعالىٰ، وهو علمُ المعرفة بالله تعالىٰ، ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قُذف به في بحر الزندقة، ولكنَّ الشَّأْنَ أن يكون بالحقيقة مؤيَّداً، وبالشريعة مقيَّداً، وكذلك المحقِّقُ فلا يكون منطلقاً مع الحقيقة ولا واقفاً مع ظاهرِ إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قواماً؛ فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقييد بالشريعة تعطيل، ومقام الهداية فيما بين ذلك.

كل علم تسبقُ إليك فيه الخواطرُ وتتبعها الصور، وتميل إليه النفس، وتلتذُّ به الطبيعة، فارْمِ به وإن كان حقّاً [1] وخُذْ بعلمِ الله الذي أنزله على رسول الله ﷺ، واقْتَدِ به وبالخلفاءِ من بعده، وبالصحابة والتابعين من بعدهم، وبالهداةِ إلى الله

(١) أي إن لم يُلزِمْكَ خشية الله. والأولىٰ أن تبتغي فيه وجه الله ونفع المسلمين فاسأل الله الصدق والإخلاص فيه، وأن يجعله حجة لك لا عليك.

تعالىٰ، الأئمةِ المُبَرَّئين من الهوىٰ، ومتابعتِهم ـ تَسْلَم من الشكوك والظنون، والأوهامِ والوساوس، والدعاوىٰ الكاذبة المُضِلَّةِ عن الهدىٰ وحقائقه. وحسبُكَ من العلمِ النافع: العلمُ بالوحدانية. ومن العلم[1]: محبةُ الله ومحبةُ رسوله ﷺ، ومحبةُ الصحابة، واعتقادُ الحق للجماعة، وإذا أردتَ أن يكون لك نصيبٌ مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملة، إلا من يدلك على الله تعالى، إما بإشارةٍ صادقة، أو بأعمالٍ ثابتة لا يَنْقُضُها كتابٌ ولا سنة، فارفَعْ هِمَّتَكَ إلى مولاك واشتغلْ به دون غيره.

سمعتُ الشيخَ أبا العباس المُرْسي يقول: واللهِ ما رأيت العزَّ إلا في رَفْعِ الهمة عن الخلق.

واذكُرْ ـ رحمك الله ـ ها هنا قولَه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فَمِن العزِّ الذي أعز اللهُ به المؤمن: رفعُ همته **إلى مولاه وثقتُه به دون ما سواه.**

واستحِ من الله بعد أن يكون كساك حُلَّةَ الإيمان، وزيَّنَكَ بزينةِ العرفان أن تستوليَ عليك الغَفْلَةُ والنسيان؛ حتى تميلَ إلى الأكوان، أو تطلبَ من غيره وجودَ الإحسان.

(١) في المخطوط (العمل).

وقبيحٌ بالمؤمن أن يُنْزِلَ حاجتَه بغير مولاه، مع عِلْمِهِ بوحدانيته وانفرادِه بربوبيته، وهو يسمعُ قولَ الله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ولْيذكرْ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ومن العقودِ التي عاقدتَه عليها ألا ترفعَ حوائجَك إلا إليه، ولا تتوكلَ إلا عليه، ورفعُ الهمة عن الخلق هو ميزان الفقر. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩] فيظهر الصادقُ بصدقه والمدعي بِكَذِبه، وقد ابتلى اللهُ تعالىٰ ـ بحكمته ووجودِ مِنَّته ـ الفقراءَ الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كَمَنوه من الرغبة، وأسرُّوْه من الشهوة فابتذلوا أنفسَهم لأبناء الدنيا، مُباسِطين لهم، موافقين لهم على مآربهم، مدفوعين عن أبوابهم، فترى الواحدَ منهم يتزيَّنُ كما تتزين العروس. معتنون بإصلاح ظواهرهم، غافلون عن إصلاح سرائرهم، ولقد وَسَمَهُمُ الحقُّ وَسْمَةً كشف بها عُوارهم، وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نِسْبَتُهم مع الله، أنْ لو صدق مع الله أن يقال له: عبد الكبير [1]، فَأُخرج عن هذه النسبة فصار

(١) في المخطوط: (عبد الكريم) وفي بعض النسخ المطبوعة (عبد) فقط.

يقال له: شيخُ الأمير. أولئك الكاذبون على الله تعالىٰ، الصادُّون العبادَ عن صحبة أولياءِ الله؛ لأنّ ما يَشْهَدُه العَوَامُّ منهم يحملونه على كل منتسِبٍ لله، صادقٍ وغيرِ صادق، فهم حُجُبُ أهلِ التحقيق [1]، وسُحُبُ شمسِ أهل التوفيق، ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم، ولبسوا دُروعهم، فإذا وقعت الحَمْلَةُ ولَّوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتُهم منطلقةٌ بالدعوىٰ، وقلوبُهم خاليةٌ من التقوىٰ! ألم يسمعوا قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] أترى: إذا سأل الصادقين عن صِدْقِهم، أيتركُ المدَّعين من غير سؤال؟؟ ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] فهم في إظهار زِيِّ الصادقين، وعملُهم عملُ المُعْرِضين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] فاعلم أن باب الرزق طاعةُ الرازق، فكيف يُطلب منه

(١) أي: إن ما يشاهده الناس منهم من مساوىء يجعلهم يعرضون عن العلماء أيّاً كانوا، فهم بهذا يحجبون العلماء الأكْفاء عن الناس.

بمعصيته، أم كيف يُستَمْطر فَضْلُه بمخالفته؟ وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا يُنال ما عند الله بسخطه»[1] أي: لا يُطلب رزقُه إلا برضاه[2]، وقد قال تعالىٰ مبيناً لذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. ولهذا المعنىٰ قال الشيخ أبو العباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ في حِزْبِه لما قال: وأعطِنا كذا وكذا، قال: والرزقَ الهنيَّ الذي لا حجابَ به في الدنيا، ولا حسابَ ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة، فأهلُه على بساط علم التوحيد، والشرع، سالمين من الهوىٰ والشهوة والطمع.

واحذرْ من التدبير مع الله تعالى! فمثالُ المدبر مع الله كعبد أرسله السيدُ إلى بلد ليصنع له ثياباً، فدخل العبد تلك البلدة فقال: أين أسكن؟ ومن أتزوج؟ فاشتغلَ بذلك وصرفَ همتَه لما هنالك وعَطّلَ ما أمره السيد به حتىٰ دعاه إليه، فجزاؤه من السيد أن جازاه القطيعةَ ووجودَ الحجْبَة؛ لاشتغاله بأمرِ نفسه عن حق سيده. كذلك أنت أيها المؤمن أخرجك الحق إلى هذه الدار، وأمرك فيها بخدمته، وقام لك

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٤) بلفظ مشابه.
(٢) في المخطوط: (بالموافقة).

بوجود التدبير مِنّةً[1] لك، فإن اشتغلتَ فيها بتدبير نفسك عن حقِّ سيدك فقد عَدَلْتَ عن سبيل الهدىٰ، وسلكْتَ مسالكَ الردىٰ. ومثالُ المدبر مع الله، والذي لا يدبر مع الله، كعبدين للملك: أما أحدهما فمشتغل بأوامر سيده، لا يلتفت إلى مَلْبَسٍ ولا مَأْكل، بل إنما همته خدمة السيد، فأَشْغَلَهُ ذلك عن التعرض لحظوظ نفسه، وأما العبدُ الآخر فكيفما طلبه سيدُه وجدَه يغسل ثيابه، وفي سياسةِ مركوبه، وتحسينِ زِيِّهِ! فالعبد الأول أولىٰ بإقبال سيده من العبد الثاني، والعبدُ إنما اشتُري للسيد لا لنفسه، كذلك العبد البصير الموفَّقُ لا تراه إلا مشغولاً بحقوق الله وامتثال أوامره ونواهيه عن محابِّ نفسه ومهماتها، فلما كان كذلك قام له الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بكل أمره[2]، وتوجَّهَ له بجزيل عطائه؛ لصدقه في توكُّله، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. والغافل ليس كذلك، لا تجده إلا في تحصيل دنياه، وفي الأشياء التي توصله إلى هواه.

ومثالُ العبد مع الله في هذه الدار كالطفل مع أمه، ولم

(١) المِنّة: العطاء والإنعام.
(٢) في المطبوع: (أوامره).

تكن الأم لِتَدَعَ تدبير ولدها من كفالتها، ولا أن تُخرجه من رعايتها. كذلك المؤمن مع الله، قائمٌ له بحسن الكفالة، فهو سائقٌ إليه المِنن، ودافعٌ عنه المحن.

ومثالُ العبد في الدنيا كمثل عبد قال له السيد: اذهب إلى أرض كذا وكذا، وأَحْكِمْ أمرَك لأنْ تسافر منها في برية كذا وكذا، وخُذْ أُهْبَتك[1] وعُدَّتك، فإذا أَذِنَ له السيدُ في ذلك، فمعلومٌ أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بُنْيَتِه ليسعىٰ في طلب العُدة، وليقوم بوجود الأُهْبَة.

كذلك العبدُمع الله: أوجدَه في هذه الدار وأمره أن يتزودَ منها لمعاده، فقال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد إلى الآخرة فقد أباح له أن يأخذَ من الدنيا ما يستعين به على تزوده إلى الآخرة، واستعداده وتأَهُّبِه لمعاده.

ومثال العبد مع الله كمثل أجير أتى به ملك إلى داره، وأمره أن يعملَ له عملاً، فما كان الملك لِيأتيَ بالأجير ويستخدمَه في داره ويتركَهُ من غير تغذية، إذ هو أكرم من

(١) الأُهْبَة: العُدّة.

ذلك. فكذلك العبد مع الله: فالدنيا دارُ الله، والأجيرُ هو أنت، والعملُ هو الطاعة، والأجرة هي الجنة، ولم يكن اللهُ لِيأمرَك بالعمل، ولا يسوقَ لك ما به تستعين عليه.

ومثال العبد مع الله تعالىٰ كمثل عبد أمره الملك أن يقيم في أرض كذا، ويحاربَ فيها العدو ويجاهدَه فيها، فمعلوم أنه إذا أمره بذلك أباح له أن يأكل من مخازن تلك الأرض بالأمانة؛ ليستعين به على محاربة العدو. وكذلك العباد: أمرهم الحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بمحاربة النفس والشيطان ومجاهدتهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر: ٦] فلما أَمَرَ العبدَ بمحاربته، أَذِنَ له أن يتناول من مَنابتِ أرضه ما يستعينُ به على محاربة الشيطان؛ إذ لو تَرَكْتَ المأكلَ والمشرب لم يُمكنْك أن تقوم بطاعته، ولا أن تنهض لخدمته.

ومثالُ العبد مع الله كمثل ملكٍ له عبيد، فبنىٰ داراً وبَهَّجَها وحَسّنها، وتولّىٰ غراسها، وكمَّل المشتَهَيات فيها، في غير الموطن الذي فيه العبيد، وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترىٰ إذا كانت هذه عنايته بهم فيما ادّخره لهم عنده وهيّأه لهم بعد الرحلة، أيمنعُهم ها هنا أن يتناولوا من مِنَنِه،

وفَضَلات طعامه وهو قد هيأ لهم الأمرَ العظيم والفضلَ الجسيم؟! كذلك العبادُ مع الله: جعلهم في الدنيا، وهيأ لهم الجنة، فلا يريد أن يمنعهم من الدنيا ولكن ما يُقيم به وجودَهم، فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. وإذا ادخر لك الباقي ومَنَّ عليك به لا يمنعُكَ الفاني، فإنما يمنعك مالم يَقسمْه لك، ومالم يقسمه لك فليس لك.

ومثالُ المهموم بأمر دنياه، الغافلِ عن التزود لأُخْراه، كمثل إنسان فاجأه[1] سَبُعٌ وهو يريد أن يفترسه، ووقع عليه ذُبابٌ، فاشتغل بِذَبِّ الذُّبابِ ودَفْعِهِ عن التَحرُّز[2] من السَّبُع. والحقُّ أن هذا عبد أحمقُ، فاقدٌ وجودَ العقل، ولو كان متصفاً بالعقل لشغَلَهُ أمرُ الأسد وصولَتُه وهجومُه عليه عن الفكرة في الذباب. كذلك المهتمُّ بأمر دنياه عن التزود للآخرة، دَلّ ذلك منه على وجود حمقه، إذ لو كان فَهِماً عاقلاً لتأهَّبَ للدار الآخرة التي هو مسؤول عنها، وموقوف

(١) في المطبوع: (جاءه).
(٢) التحرُّز: التوقّي والتَّحَصُّن.

فيها، فلا يشتغل بأمر الرزق؛ فإن الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبةُ الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه.

ومثال المدخر للأمانة كعبد الملك لا يرىٰ أن له مع سيده شيئاً، ولا يعتمد على ادخار ما في يده، ولا بَدَلَ له، ولا يختار إلا ما اختاره السيد له[1]، فإذا فهم هذا العبدُ أن الإمساك مُرادُ السيد، أمسك لسيده لا لنفسه؛ حتى يتخيرَ موضعَ صَرْفِه، فيكونَ له صارفاً حين يفهم من سيده إرادةَ صرفه، فهذا بإمساكه غيرُ مَلُوْم، لأنه أمسكَ لسيده لا لنفسه كذلك أهلُ المعرفة بالله إن بذلوا ففيه، وإن أمسكوا فله، يبتغون ما فيه رضاه، ولا يريدون بِبَذْلِهِمْ وإمساكهم إلا إياه، فهم خُزّانٌ أُمناء، وعبيدٌ كُبَراء، وأبرارٌ كرماء، قد حرَّرهم الحقُّ من رِقِّ الآثار[2]، فلم يميلوا إليها بحب، ولم يُقبلوا عليها بِوُدّ، منعَهم من ذلك ما أسكنه في قلوبهم من حب الله ووُدِّه، وما امتلأتْ به صدورهم من عظمته ومَجْدِه، فصارت الأشياء في أيديهم كهي في خزائن الله من قبل أن تصل إليهم، علماً منهم بأن اللهَ تعالىٰ يملكهم ويملكُ ما ملّكهم.

(١) في المطبوع: (ولا بد له منه ما لا يختاره السيد له).
(٢) أي: من عبودية الأشياء من حولهم.

بيانٌ للمعتبرين وهداية للمستبصرين: وهو أنّ من خَرَجَ عن تدبيره لنفسه كان الله هو المتوليَ بحسن التدبير له. والتدبيرُ على قسمين: تدبير محمود، وتدبير مذموم.

فالتدبير المذموم: هو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجودِ حظها ليس لله فيه شيء، كالتدبير في تحصيل معصية، أو في حظ بوجود عقل [1]، أو طاعةٍ بوجود رياءٍ وسمعة، ونحو هذا، فهذا كلُّه مذموم لأنه إما موجبٌ عقاباً، وإما موجب حجاباً. ومن عرف نعمة العقل استحيىٰ من الله سبحانه أن يَصْرِفَ عقلَه إلى تدبير مالا يوصلُه إلى قربه، ولا يكون سبباً لوجود حبه، والعقلُ أفضل ما مَنَّ اللهُ به على عباده؛ لأنه سبحانه خلق الموجودات وتَفضَّل عليها بالإيجاد وبدوام الإمداد، فاشتركت الموجوداتُ في إيجاده وإمداده، فلما اشتركت أراد الحق سبحانه أن يميز الآدميَّ عنهم، فأعطاه العقل وأيّده به، وفضّله بذلك على الحيوان، وأَكْمَلَ به نعمتَه على الإنسان، وبالعقل ووفورِه وإشراقِه ونورِه، تتمُّ مصالح الدنيا والآخرة، فَصَرْفُ نعمة العقل إلى تدبير الدنيا التي لا قدرَ لها عند الله تعالىٰ كفرٌ لنعمة العقل. وتَوَجُّهُهُ إلى

(١) في المطبوع: (غفلة).

الاهتمام بإصلاح شأنه في معاده، قائماً بشكر المحسن إليه، والمفيض من نوره عليه: أحقُّ به وأحرىٰ، وأفضلُ له وأولىٰ فلا تصرفْ عقلك الذي مَنَّ الله به عليك في تدبير الدنيا، التي هي كما أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «الدنيا جيفة قذرة» [1] وكما قال للضحاك: «ما طعامك؟» قال: اللحمُ واللبن. قال: «ثم يعودان إلى ماذا؟» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله. قال: «فإن الله قد جعل ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا» [2].

والتدبير المحمود: هو ما كان تدبيراً لما يُقَرّبُك إلى الله

(١) ورد الخبر عن علي موقوفاً وهو بلفظ: «الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب». وقال العجلوني في «كشف الخفاء» عند كلامه عن «الدنيا جيفة وطلابها كلاب»: (قال الصغاني: موضوع. أقول: وإن كان معناه صحيحاً لكنه ليس بحديث). انتهى كلام العجلوني.

(٢) رواه الإمام أحمد عن الضحاك بن سفيان الكلابي أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ضحاك، ما طعامك؟ قال: يا رسول الله، اللحم واللبن، قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت، قال: فإن الله تبارك وتعالى ضرب ما يَخرُج من ابن آدم مثلاً للدنيا». انظر المسند، جـ٧ رقم (٥٤٢٤).

سبحانه وتعالىٰ، كالتدبير في براءة الذمة من حقوق المخلوقين، إما وفاءً، وإما استحلالاً، وتصحيح التوبة إلى رب العالمين، والفكرة فيما يؤدي إلى قَمْع الهوىٰ المُرْدي والشيطانِ المُغْوي، فهذا كله محمودٌ لا شكَ فيه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فكرةُ ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[1].

والتدبير للدنيا على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا، وتدبير الدنيا للآخرة.

فتدبير الدنيا للدنيا: هو أن يدبر في أسباب جمعها افتخاراً بها واستكثاراً لها، وكلما زِيد فيها شيء ازداد غفلة واغتراراً، فأمارةُ ذلك أن تشغَلَهُ عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة.

وتدبيرُ الدنيا للآخرة: كمن يدبر المتاجر ليأكل منها حلالاً، أو ليُنعم بها على ذوي الفاقة أفضالاً، وليصون بها وجهه عن الناس إجمالاً، فأمارةُ ذلك عدمُ الاستكثار

(١) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» بلفظ (ستين سنة) ورمز له بالضعف، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات»، والديلمي في «الفردوس» بلفظ (ثمانين سنة).

والادخار، والإسعافُ والإيثار، فقد تبين من هذا أنه ليس كلُّ طالب للدنيا مذموماً، بل المذموم من طلبها لنفسه لا لربه، ولدنياه لا لآخرته، فالناسُ إذاً على قسمين: عبدٌ طلب الدنيا للدنيا، وعبدٌ طلب الدنيا للآخرة.

وسمعت شيخَنا أبا العباس المرسي ـ رضي الله عنه ـ يقول: العارفُ لا دنيا له ولا آخرة؛ لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه. وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، فكل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك إلى الله متقربون، وإلى رضاه منتسبون، لا يقصدون بذلك الدنيا وزينَتها ووجودَ لذّاتها، ولهذا وصفهم الحق سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] وما ظنك بقوم يحبهم الله، واختارهم لصحبة رسول الله ﷺ، ولمواجهة خطابِه في تنزيله، فما أحدٌ من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقِه مِنَنٌ لا تحصىٰ، وأيادٍ لا تُنسىٰ؛ لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبي ﷺ الحِكَم والأحكام، وبينوا الحلالَ من الحرام، وفهموا الخاصَّ والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهلَ الشرك والعناد، ويحق قوله ﷺ فيهم:

«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1] وقد وصفهم الله في الآية الكريمة بأوصاف إلى أن قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحشر: ٨] دل ذلك من قوله سبحانه وتعالىٰ أنهم ما ابتغوا بما حملوه من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجهَهُ الكريم وفضلَه العظيم. وقال سبحانه وتعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧] ولم يَنْفِ عنهم الأسبابَ ولا التجارة، ولا البيعَ ولا الشراء فلا يُخرجهم عن المُدْحة غِناهم إذا قاموا فيه بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه عند خازنه يوم قُتل زِنةُ مئة ألف وخمسمئة دينار، وألف ألف درهم، وترك ألفَ فرس، وألفَ مملوك، وخلَّف ضياعاً: بئر أريس وخيبر ووادي القرىٰ ما قيمته مئتا ألفِ دينار. وخَلَّفَ عمرو بن العاص ثلاثمئة ألفِ دينار، وبلغ مالُ الزبير بن

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع العلم»، وابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام». قال ابن حزم: سلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة وهذا منها بلا شك.

العوام خمسين ألف دينار، وترك ألفَ فرس وألفَ مملوك. وغنىٰ عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ أشهر من أن يذكر. وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فُقِدَتْ، وشكروا الله حين وُجِدَتْ، وإنما ابتلاهم الله بالفاقة في أول أمرهم حتى تكمّلتْ أنوارُهم، وتطهَّرت أسرارُهم، فبذلها لهم حينئذ؛ لأنهم لو أُعْطُوها قبل ذلك لعلها كانت تأخذ[1] منهم، فلما أُعْطُوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازِن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم، ويكفيك في ذلك خروجُ عمر بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن نصف ماله، وخروجُ أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن ماله كله، وخروجُ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن سبعمئة بعير موقورة[2] بالأحمال، وتجهيزُ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ جيشَ العسرة، إلى غير

(١) في المخطوط: (تؤخذ).
(٢) موقورة: مُحمَّلَة.

ذلك من حُسن فَعالهم وسَنِيِّ [1] أحوالهم، رضي الله عنهم أجمعين رضاءً دائماً أبداً!. فتضمنت الآيات التزكيةَ لظاهرهم وسرائرهم، وإثباتَ محامدِهم ومفاخرهم، فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين: تدبيرُ الدنيا للدنيا كما هو حال أهلِ القطيعة اللئام الغافلين، وتدبيرُ الدنيا للآخرة كحال الصحابة الأكرمين والسَلف الصالحين رضوان الله تعالىٰ عليم أجمعين، وجَعَلَنا ممن اقتدى بهم، آمين بل ألف ألف آمين!!

○ ○ ○

(١) أي: أحوالهم الرفيعة.

«فصل»

نذكر فيه مناجاة الحق سبحانه وتعالىٰ لعبده على لسان هواتف الحقائق في شأن التدبير والرزق.

أيها العبد؛ أَلْقِ سمعَك وأنت شهيد يأتِك مني المزيد، وأصغ بسمعِك فأنا لستُ عنك ببعيد. كنتَ بتدبيري لك قبل أن تكونَ لنفسك، فكنْ لنفسك بألا تكونَ لها. وتوليتُ رعايتَها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها.

أنا المنفرد بالخلق والتصوير، وأنا المنفردُ بالحكم والتدبير، لم تشاركْني في خلقي وتصويري فلا تُشارِكْني في حُكمي وتدبيري.

أنا المدبر لمُلكي وليس لي فيه ظهير [1]، وأنا المنفردُ بحكمي فلا أحتاج إلى وزير.

(١) ظهير: مُعين.

أيها العبد: مَنْ كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركْهُ في المُراد، ومن عَوَّدَكَ حُسْنَ النظر منه إليك فلا تقابلْه بالعناد.

عُوِّدْتُك حسنَ النظر مني لك فعوِّدْني إسقاطَ التدبير منك معي.

أشكّاً بعد وجودِ التجربة؟ وحَيْرةً بعد وجود البيان، وضلالاً بعد وضوح الهدىٰ؟! وقد سَلّمْتَ لي قيامي بمملكتي وأنت من مملكتي، فلا تنازعْ رُبوبيتي، ولا تضادد بتدبيرك مع وجود ألوهيتي.

متىٰ أحوجتُك إليك حتى تحتال عليك [1]؟!.

متىٰ وَكَلْتُ شيئاً من مملكتي لغيري حتىٰ أَكِلَ ذلك إليك؟!.

متى خاب من كنتُ له مدبراً، ومتىٰ خُذِلَ من كنتُ له ناصراً؟!.

أيها العبد: لتشغلْكَ خدمتي عن طلب قِسْمتي، ولْيمنعْكَ حسنُ الظن بي عن اتهام ربوبيتي. لا ينبغي أن يُتّهَم محسن،

(١) حتى تحتال عليك: حتىٰ تُحيل الأمر عليك.

ولا أن يُنازَعَ مقتدر، ولا أن يُضادَّ قهار، ولا أن يُعترض على حكيم، ولا أن يُعال همٌّ مع لطيف.

لقد فاز بالنُجْحِ من خرج عن الإرادة معي، ولقد دُل على تيسير الأمور من احتال علي[1]، ولقد استوجب النصرَ مني عبدٌ إذا تحرك تحرك بي، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببي.

أيها العبد: نريدُ منك أن تريدَنا ولا تريدَ معنا، ونريدُ منك أن تختارَنا ولا تختار معنا، ونرضىٰ لك أن ترضانا ولا ترضىٰ سوانا. وكما سَلَّمْتَ لي تدبيري في أرضي وسمائي، وانفرادي فيهما بحكمي وقضائي؛ سَلِّمْ وجودَك لي فإنك لي، ولا تدبِّرْ معي فإنك معي، واتَّخِذْني وكيلاً وَثِقْ بي كفيلاً أُعْطِكَ عطاءً جزيلاً، وأَهَبْكَ فخراً جليلاً.

ويحك! إنّا أَجْلَلْنا قدرَك أن نشغلَك بأمر نفسِك فلا تُصَغِّرْ قدرَك.

يا من رفعناه: لا تَذِلَّنَّ بحوالتك على غيرنا.

(١) احتال عليّ: أحال الأمر عليّ.

يا من أعززناه: ويحك! أنت عندنا أَجَلُّ من أن نشغلَك بغيرنا.

لحضرتي خَلَقْتُك، وإليها خطبتُك، وبجواذِبِ عنايتي إليها جذبتُك، فإن اشتغلتَ بنفسك حجبْتُك، وإن اتبعتَ هواها طردتُك، وإن خرجت عنها قرّبْتُك، وإن توددْتَ إليّ بإعراضك عمّا سواي أحببتُك.

أيها العبد: ما آمن بي من نازعني، ولا وَحَّدني من دبّر معي، ولا رضي بي من شكا ما أنزلت به إلى غيري، ولا اختارني من اختار معي، ولا امتثل أمري من لم يستسلمْ لقهري.

لو طلبتَ التدبير لنفسك لجهلْتَ، فكيف إذا دبّرتَ لها، ولو اخترتَ معي ما أنصفتَ فكيف إذا اخترتَ عليّ؟!.

أيها العبد: يكفيك من الجهل أن تَسْكُنَ لما في يدك، ولا تسكنَ لما في يدي، أنا أختار لك أن تختارني أفتختار عليّ؟!.

يا مهموماً بنفسه، لو ألقيتَها إلينا لاسترحت.

ويحك! أعباءُ التدبير لا يحملها إلا الربوبية، وليس يقوىٰ عليها ضعيفُ البشرية.

ويحك! أنت محمول فلا تَكُ حاملاً، أَرِحْنا راحتك فلا تكنْ لنفسك متعِباً.

أيها العبد: أمرتُك بخدمتي، وضَمِنْتُ لك قسمتي، فأهملتَ ما أَمَرْتُ، وشككتَ فيما ضَمِنْتُ، ولم أكتفِ بالضمان حتىٰ أقسمتُ، ولم أكتف بالقسم حتىٰ مَثّلْتُ، فخاطبتُ عباداً يفهمون فقلت: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣] وقد رزقتُ من غفل عني وعصاني فكيف لا أرزقُ من أطاعني ودعاني؟!.

ويحك! الغارسُ للشجرة هو ساقيها، والمُمِدُّ للخليقة هو باريها. مني كان الإيجاد وعلي دوام الإمداد. مني كان الخلق وعلي دوام الرزق. أأُدخلك داري وأمنعك إبراري؟! أأُبْرزك لكوني وأمنعك وجود عوني؟! أأُخرجك إلى وجودي وأمنعك جودي؟!

لك هَيّأْتُ منتي، وفيك أظهرتُ رحمتي، وما قنعت لك بالدنيا حتىٰ ادخرت لك جنتي وما اكتفيت لك بذلك حتىٰ أتحفتك برؤيتي.

فإذا كانت هذه أفعالي فكيف تشك في إفضالي؟!

فاخترني ولا تختر عليّ، ووجه قلبك بالصدق إلي فإنْ فعلتَ أريتُك غرائب لطفي، وبدائع جودي، وأمتعْ سِرَّك بشهودي.

لقد أظهرتُ الطريق لأهل التحقيق، وبينت معالم الهدىٰ لذوي التوفيق، فبحقٍّ سَلَّمَ إلي الموقنون، وببيان تَوكَّلَ عليَّ المؤمنون. علموا أني خير لهم من أنفسهم لأنفسهم، وأن تدبيري لهم أحرىٰ من تدبيرهم لها، فأذعنوا لربوبيتي مستسلمين، وطرحوا أنفسهم بين يديّ مفوِّضين، فعوّضتهم عوض ذلك راحةً في نفوسهم، ونوراً في عقولهم، ومعرفةً في قلوبهم. وتحقيقاً بقربي في أسرارهم. هذا في هذه الدار، ولهم عندي إذا قدموا علي أن أجل منصبهم وأعلي محلهم، ولهم إذا أدخلتهم داري: ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

أيها العبد: الوقت الذي أنت تستقبُله لم أطالبْكَ فيه بالخدمة، فلا تطالبني فيه بالقسمة، فإذا كلّفتُك تكفلت لك، وإذا استخدمتك أطعمتك.

واعلم بأني لا أنساك ولو نسيتني، وأني ذكرتك من قبل أن تذكرني، وأن رزقي عليك دائمٌ وإن عصيتني، فإذا كنت كذلك في إعراضك عني، فكيف ترىٰ أن أكون لك في

إقبالك علي؟ ما قَدَرْتَني حقَّ قَدْري إنْ لم تستسلم لقهري، ولا رعيتَ حق بِرّي إن لم تمتثل أمري، فلا تُعْرِضْ عني فإنك لا تجد من تَستبدلُه مني، ولا تغترَّ بغيري فلا أحد يغنيك عني فإنك لا تجد من تَستبدلُه مني، ولا تغترَّ بغيري فلا أحد يغنيك عني.

أنا الخالق لك بقدرتي، وأنا الباسط لك مِنّتي، فكما أنه لا خالقَ غيري فكذلك لا رازقَ غيري، أأَخْلُقُ وأُحيل على غيري وأنا المتفضل؟! وأمنع العبادَ وجودَ خيري وأنا المنعم؟!.

فَثِقْ أيها العبد بي فأنا رب العباد، واخرج من مرادك الي أُبلغْكَ عينَ المراد، واذكر سوابق لطفي، ولا تنسَ حق الوداد.

○ ○ ○

مناجاته (رضي الله تعالى عنه)

إلهي! أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

إلهي! مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك. إن ظَهَرَتِ المحاسنُ مني فبفضلك ولك المنةُ علي، وإن ظهرَتْ المساوىءُ مني فَبِعَدْلك ولك الحجة علي.

إلهي! كيف تَكِلُني وقد توكّلْتَ لي! وكيف أُضَامُ وأنت الناصر لي، أم كيف أَخيب وأنت الحَفِيُّ بي؟!.

ها أنا أتوسل إليك بفقري، وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك! أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أُترجم بمقالي وهو منك بَرَزَ وإليك، أم كيف تَخيْبُ آمالي، وهي قد وفدتْ عليك، أم كيف لا تَحْسُنُ أحوالي وبك قامت وإليك؟!.

إلهي! ما ألطفَكَ بي مع جهلي، وما أرحمَكَ بي مع قبيح فعلي! وما أقربَك مني وما أبعدني عنك، وما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك؟!.

إلهي! كما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستْني أوصافي أطمعتْني مِنَّتُك.

إلهي! من كانت محاسنه مساوىء فكيف لا تكون مساويه مساوىء؟! ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي!.

إلهي! كيف أَعْزِم وأنت القاهر، وكيف لا أَعزِم وأنت الآمر.

تردُّدي في الآثار يوجب بُعْدَ المزار، فاجمعني عليك بخدمةٍ توصلني إليك.

كيف يُستدلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتىٰ يكون هو المُظْهِرَ لك؟!.

متىٰ غِبْتَ حتىٰ تحتاجَ إلى دليل يدل عليك، ومتىٰ بَعُدْتَ حتىٰ تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!.

إلهي! عَمِيَتْ عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرتْ صفقةُ

عبد لم تجعل له من حبك نصيباً.

إلهي! هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك. منك أطلب الوصول وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمنيْ بصدق العبودية بين يديك.

إلهي! علّمني من علمك المخزون، وصِنّي بِسِرِّ اسمك المصون، وحَقِّقْني بحقائق أهل القرب، واسلك بي في مسالك أهل الجَذْب، وأغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري، وأخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رِمْسي.

بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإليك أسأل فلا تحرمني، وفي فضلك أرغب فلا تخيبني، ولجنابك أنتسب فلا تُبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلهي! إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت الناصر لي حتىٰ تنصرني وتُبَصِّرني، وأغنني بفضلك حتىٰ أستغني بفضلك عن طلبي.

أنت الذي أشرقْتَ الأنوارَ في قلوب أوليائك، وأنت الذي أزلْتَ الأغيارَ من أسرار أحبائك. أنت المؤنسُ لهم

حيث أَوْحَشَتْهُمُ العوالم، وأنت الذي هديتهم حتىٰ استبانت لهم المعالم.

ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟

ولقد خاب مَنْ رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغىٰ دونك مُتَحَوَّلاً.

كيف يُرْجىٰ سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان؟!.

يا مَنْ أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين.

يا مَنْ ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين.

أنت الذاكر من قَبْلِ الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان من قَبْلِ توجه العابدين، وأنت الجواد بالإعطاء من قَبْلِ طلب الطالبين، وأنت الوهّاب لنا ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين، فاطلبني برحمتك حتىٰ أصل إليك، واجْذِبْني بِمِنَّتك حتىٰ أقبل عليك.

إلهي! إن رجائي لا ينقطع عنك وإنْ عصيتُك، كما أن خوفي لا يُزايلني وإن أطعتك. قد دفعتني العوالم إليك، وأوقفني علمي بكرمك عليك، فكيف أخيب وأنت أملي، أم

كيف أُهان وعليك مُتَّكَلي؟! كيف أستعز وفي الذلة أَرْكَزْتَني، أم كيف لا أستعز وإليك قد نسبتني؟! كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟!.

أنت الذي لا إله غيرُك. تَعَرَّفْتَ لكل شيء فما جَهِلَكَ شيء، وأنت تَعَرَّفْتَ لي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من استوىٰ برحمانيته غلى عرشه، فصار العرشُ غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه. محقت الآثار بالآثار، ومَحَوْتَ الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

يا من احْتَجَبْتَ في سُرادِقاتِ عزه عن أن تُدْرِكَه الأبصار، يا من تَجَلّىٰ بكمال بهائه فتحققت عَظَمَتَهُ الأسرارُ، كيف تخفىٰ وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟!.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي، وعلى آله صلاةً تُحَلُّ بها العُقَد، وتُفْرَجُ بها الكُرَب، ويزولُ بها الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب. صلاةً تُرضيك وتُرضيه وترضىٰ بها عنا يا رب العالمين.

○ ○ ○